الباب الرابع

متى دُوِّنَ الحديث..؟

الفصل الأول: حول تدوين الحديث.

الفصل الثانى: ما دون فى عصر الرسول ﷺ
وفى صدر الإسلام.

الفصل الثالث: آراء فى التدوين.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

حول تدوين الحديث...

١ - الكتابة عند العرب قبيل الإسلام:

تدل الدراسات العلمية على أن العرب كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام، فكانوا يؤرخون أهم حوادثهم على الحجارة، وقد أثبتت الأبحاث الأثرية ذلك بأدلة قاطعة، تعود إلى القرن الثالث الميلادى، وأكثر الآثار التى تحمل كتابات العرب كانت فى الأطراف الشمالية للجزيرة العربية[١] حيث كان الاتصال وثيقًا بالحضارة الفارسية والرومية، ومما يذكر أن عدى بن زيد العبادى (-٣٥ق هـ) حين نما وأيفع طرحه أبوه فى الكتاب حتى حذق العربية، ثم دخل ديوان كسرى، وهو أول من كتب بالعربية فى ديوان كسرى.[٢] وهذا يدل على وجود بعض الكتاتيب فى الجاهلية، يتعلم فيها الصبيان الكتابة والشعر وأيام العرب، ويشرف على هذه الكتاتيب معلمون ذوو مكانة رفيعة، أمثال أبى سفيان بن أمية بن عبد شمس، وبشر بن عبد الملك السكونى، وأبى قيس بن عبد مناف بن زهرة، وعمرو ابن زرارة المسمى؛ (الكاتب) وغيرهم[٣]، وقد استُقدم أبو جفينة إلى المدينة ليعلم الكتاب[٤]، (وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان يعلمه الصبيان بالمدينة فى الزمن الأول، فجاء الإسلام وفى الأوس والخزرج عدة يكتبون)[٥].

وكان العرب يطلقون اسم (الكامل) على كل رجل يكتب، ويحسن الرمى، ويجيد السباحة[٦]، ولكن كثيرًا من الشعراء كانوا يفخرون بحفظهم، وقوة

---

(١) انظر: مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص٢٤-٣٢ وقد فصل القول فى هذا.

(٢) انظر: الأغانى ص١٠١، ١٠٢ جـ٢.

(٣) انظر: كتاب المحبر ص٤٧٥ وقد ذكرهم تحت عنوان أشراف المعلمين.

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبرى ص٤٢ جـ٥.

(٥) فتوح البلدان ص٤٥٩.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد ص١٣٦ قسم ٢ جـ٣ وعيون الأخبار ص١٦٨ جـ٢ وفتوح البلدان ص٤٥٩.

ذاكرتهم، بل إن بعضهم كان يخفى على الناس معرفته بالكتابة، ويخشى أن يكشف أحد أمره، وإذا ما كشف أمر أحدهم قال: «اكتم علىَّ فإنه عندنا عيب[1]».

بعد هذا نستبعد أن يكون قول بعض المؤرخين: (دخل الإسلام وبمكة بضعة عشر رجلا يكتب)[2] ـ صورة دقيقة لحقيقة معرفة العرب بالكتابة قبيل الإسلام، ونستبعد أن يكون هذا على وجه الإحصاء والضبط، ومع هذا لا يباح لنا أن نغالى فى معرفة العرب للكتابة، ونذهب مذهب من ادعى كثرة الكتابة عند العرب فى الجاهلية، وكثرة الكاتبين القارئين، وقد حاول بعض المستشرقين وبعض الكاتبين العرب أن يدعموا رأيهم هذا بتأويل وصف الله تعالى للعرب (بالأميين) ـ فى قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] ـ بأنه (لا يعنى الأمية الكتابية ولا العلمية، إنما يعنى الأمية الدينية، أى أنه لم يكن لهم من قبل القرآن الكريم كتاب دينى، ومن هنا كانوا أميين دينياً، ولم يكونوا مثل (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل)[3] وحمل هذا اللفظ على هذا المعنى من غير قرينة لا مسوغ له، لأنه يقتضى التفريق بين تفسير الأميين وهم العرب (جهلة الشريعة) وتفسير ما وصف به الرسول ﷺ من الأمية ـ فى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بأنه الذى لا يعرف القراءة والكتابة، ولا داعى لهذا التفريق فى المعنى، ولا مؤيد له فلابد من حمل اللفظ على أحد المعنيين، والأصل فيه عدم معرفة القراءة والكتابة[4]،

(١) الأغانى ص١١٦ جـ١٦ هذا ما روى عن ذى الرمة.

(٢) انظر: مثالا على هذا ما جاء فى قبول الأخبار ص٦٤، وانظر: عبارة المؤرخين التى يرددونها: (وكانت الكتابة فى العرب قليلة) ومثال هذا فى طبقات ابن سعد ص٨٣ قسم ٢ جـ٣ وص٧٧ قسم٢ جـ٣.

(٣) مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص٤٥.

(٤) لقد اختار الدكتور صارم الدين الأسد تفسير (الأميين) بمعنى جهلة الشريعة، أى الأمية الدينية لا الأمية المتعلقة بالقراءة والكتابة، ودعم رأيه هذا بشواهد فصل فيها، انظر ذلك فى كتابه مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص٤٥. وتعرض الدكتور صبحى الصالح فى كتابه «علوم الحديث ومصطلحه» لهذا التفسير الذى اعتمد عليه المستشرقون فى زعمهم أن الرسول ﷺ كان كاتبا قارئا، وأن وصفه بالأمية =

على أن الرسول الكريم ﷺ بين الأمية المعنية بما لا يرقى إليه الشك، فقد أخرج الشيخان وأصحاب السنن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا...**»[1].

٢- الكتابة فى العصر النبوى وصدر الإسلام:

مما لا شك فيه أن الكتابة انتشرت فى عهد النبى ﷺ على نطاق أوسع مما كانت عليه فى الجاهلية، فقد حث القرآن الكريم على التعلم، وحض الرسول ﷺ على ذلك أيضًا، واقتضت طبيعة الرسالة أن يكثر المتعلمون، القارئون، الكاتبون، فالوحى يحتاج إلى كتاب، وأمور الدولة من مراسلات وعهود ومواثيق تحتاج إلى كتاب أيضًا، وقد كثر الكاتبون بعد الإسلام فعلا ليسدوا حاجات الدولة الجديدة، فكان للرسول كتاب الوحى بلغ عددهم أربعين كاتبًا، وكتاب للصدقة، وكتاب للمداينات والمعاملات، وكتاب للرسائل يكتبون باللغات المختلفة[2]. وإن ما ذكره المؤرخون من أسماء كتاب رسول الله ﷺ لم يكن على سبيل الحصر، بل ذكروا من داوم على الكتابة بين يده، ويظهر هذا واضحًا فى قول المسعودى (إنما ذكرنا من أسماء كتابه ﷺ من ثبت على كتابته، واتصلت أيامه فيها، وطالت مدته، وصحت الرواية على ذلك من أمره دون من كتب الكتاب والكتابين والثلاثة، إذ كان لا يستحق بذلك أن يسمى كاتبًا، ويضاف إلى جملة كتابه[3]).

= ـ كوصف العرب بها ـ لا ينافى معرفة القراءة والكتابة. انظر كتابه الصفحة ٢-٤ وهوامشها، وقد رد عليهم رداً جليلا.

(١) وتتمة الحديث (وهكذا يعنى مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين) انظر: فتح البارى ص٢٨، ٢٩ جـ٥ وصحيح مسلم ص٧٦١ حديث ١٥ جـ٢ وقد روى من طرق كثيرة، قال هذا ﷺ بمناسبة رؤية هلال رمضان، ورأى جمهور المحدثين على أن المراد بالأمة الأمة العربية آنذاك، والمراد من الأمية، أمية القراءة والكتابة، وقد قيل للعرب أميون لأن الكتابة كانت فيهم قليلة، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، ولا يرد على ذلك أنه كان فيهم من يكتب ويحسب لأن الكتابة كانت فيهم قليلة ونادرة آنذاك والمراد بالحساب هنا حساب النجوم وتسييرها ولم يكونوا يعرفون من ذلك أيضا إلا اليسير. انظر: تفصيل هذا فى فتح البارى ص٢٨، ٢٩ جـ٥.

(٢) راجع المصباح المضىء فى كتاب النبى الأمى ورسله إلى ملوك الأرض من عرب وعجم لمحمد بن على بن حديد الأنصارى. مخطوط مكتبة الأوقاف بحلب، تحت رقم (٢٧٠٠) وقد فصل القول فى ذلك فى ص١٦-٤٠.

(٣) التنبية والإشراف ص٢٤٦.

وقد كثر الكاتبون بعد الهجرة عندما استقرت الدولة الإسلامية، فكانت مساجد المدينة التسعة إلى جانب مسجد رسول الله ﷺ[1] محط أنظار المسلمين، يتعلمون فيها القرآن الكريم، وتعاليم الإسلام، والقراءة والكتابة، وقد تبرع المسلمون الذين يعرفون الكتابة والقراءة بتعليم إخوانهم، وأرجح أنه كان من أوائل هؤلاء المعلمين سعد بن الربيع الخزرجى أحد النقباء الاثنى عشر[2]، وبشير بن سعد بن ثعلبة[3]، وأبان بن سعيد بن العاص[4]، وغيرهم رضوان الله عليهم.

وكان إلى جانب هذه المساجد كتاتيب يتعلم فيها الصبيان الكتابة والقراءة، إلى جانب القرآن الكريم[5]. ولا يفوتنا أن نذكر أثر غزوة (بدر) فى تعليم صبيان المدينة، حينما أذن رسول الله ﷺ لأسرى بدر بأن يفدى كل كاتب منهم نفسه

---

(١) انظر: مالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص١٣١.

(٢) المتوفى سنة (٣) هـ انظر: طبقات ابن سعد ص٧٧ ، ١٤١ قسم٢ جـ٣.

(٣) المتوفى سنة «١٢» هـ انظر: طبقات ابن سعد ص٨٣ قسم٢ جـ٣ وتهذيب التهذيب ص٤٦٤ جـ١ والإصابة ص٦٣ جـ١.

(٤) انظر: الإصابة ص١٠، ١١ جـ١ والمصباح المضىء ص١٦ وقد اختلف فى وفاة أبان بن سعيد، فقيل توفى سنة «١٣هـ» وقيل سنة «١٥هـ»، وقيل غير ذلك والصواب أنه عاش إلى خلافة عثمان، وأنا أرجح هذا لأنه كان أحد الصحابة الذين نسخوا المصاحف مع زيد بن ثابت فى عهد عثمان رضى الله عليهم جميعا، انظر: صحيح البخارى بحاشية السندى ص٢٢٥، ٢٢٦ جـ٣ وكتابنا «زيد بن ثابت الأنصارى» ص٣٥.

(٥) كتب جولد تسيهر مقالا هاما فى دائرة معارف الأديان والأخلاق عن التعليم الأولى عند المسلمين، وقد حاول أن يثبت أن كتاب تعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامى قد أنشئ فى عهد مبكر، وأنه يرجع إلى صدر الإسلام، وقد دعم رأيه بالأسانيد الآتية:

أ- أرسلت أم سلمة إحدى زوجات الرسول ﷺ مرة إلى معلم كتاب تطلب منه أن يرسل لها بعض تلاميذ كتابه ليساعدوها فى ندف الصوف وغزله.

ب- كان عمر بن ميمون يحفظ الصيغة التى تقى الإنسان شر العين، وقد أسندها إلى سعد بن أبى وقاص الذى كان يعلمها أولاده، ويكتبها لهم كما يفعل المدرس مع تلاميذه.

جـ- مر «ابن عمر» و «أبو أسيد» فى مناسبة ما بكتاب، فلفتا إليهما أنظار التلاميذ.

د- كان اللوح المخصص للكتابة موجودا فى وقت مبكر جدا، فلقد روى عن أم الدرداء أنها كتبت على لوح من هذا النوع عبارات فى الحكمة، ليقلدها تلميذ كانت تعلمه الكتابة والقراءة» انظر: تاريخ التربية الإسلامية للدكتور أحمد شلبى طبعة بيروت سنة ٩٥٤ ص٢٦.

ونضيف إلى هذا ـ مما يؤكد وجود الكتاتيب ـ ما رواه عثمان بن عبيد الله، قال: رأيت أبا هريرة يصفر لحيته ونحن فى الكتاب. انظر: طبقات ابن سعد ص٥٩ قسم ٢ جـ٤. وقد تعلم زيد بن ثابت فى أحد هذه الكتاتيب: انظر: مسند الإمام أحمد ص ٢٥٩ جـ٥.

بتعليم عشرة من صبيان المدينة الكتابة والقراءة[1]، ولم يقتصر تعليم الكتابة والقراءة على الذكور فقط، بل كانت الإناث تتعلمن هذا فى بيوتهن فقد روى أبو بكر بن سليمان بن أبى حثمة عن الشفاء بنت عبد الله أنها قالت: (دخل علىَّ رسول الله ﷺ، وأنا عند حفصة، فقال لى: «**ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة؟**»)[2].

ثم اتسع نطاق التعليم، وانتشر فى الآفاق الإسلامية، بانتشار الصحابة رضوان الله عليهم، وكثرت حلقات العلم، وانتظمت فى المساجد[3]، وأضحت بعض الحلقات تضم نيفا وألفا من طلاب العلم[4]، وكثر المعلمون[5]، وانتشرت الكتاتيب فى مختلف أنحاء الدولة الإسلامية، وغصت بالصبيان، وضاقت بهم حتى اضطر الضحاك بن مزاحم معلم الصبيان ومؤدبهم إلى أن يطوف على حمار ليشرف على طلاب مكتبه، الذين بلغ عددهم ثلاثة آلاف صبى[6]، وكان لا يأخذ أجرًا على عمله[7].

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ص١٤ قسم١ جـ٢.

(٢) سنن أبى داود ص٣٣٧ جـ٢ والنملة هى قروح تخرج فى الجنب. وفى الحديث عن أنس قال: «رخص رسول الله ﷺ فى الرقية من العين والحمة والنملة.» والحمة ـبضم الحاء وفتح الميمـ هى السم انظر: صحيح مسلم ص١٧٢٥ حديث ٥٨ جـ٤.

(٣) مما يذكر عن النشاط العلمى وانتظام الحلقات أن أبا الدرداء رضى الله عنه «ـ٣٢هـ» كان إذا صلى الغداة فى جامع دمشق اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفا، ويقف هو فى المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم، رجع إلى عريفهم، وإذا غلط عريفهم رجع إلى أبى الدرداء فسأله عن ذلك» انظر غاية النهاية فى طبقات القراء ص٦٠٦ جـ١، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص٦٩ جـ١.

(٤) قال مسلم بن مشكم «قال أبو الدرداء: اعدد من يقرأ عندى القرآن، فعددتهم بأمره ألفا وستمائة ونيفا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائما إذا أحكم الرجل منهم تحول إلى أبى الدرداء.» انظر: غاية النهاية فى طبقات القراء ص٦٠٧ جـ١ ونحوه فى تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ص٦٩ جـ١.
وقد بلغت حلقات العلم فى عهد عبد الملك بن مروان درجة عظيمة، فقد رأى فى المسجد الحرام حلقات كثيرة لعطاء ولسعيد بن جبير ولميمون بن مهران ولمكحول ولغيرهم، فأعجب بهم، وحث أحياء قريش على المحافظة على العلم. انظر: تفصيل هذا فى المحدث الفاصل ص٣٥، ٣٦.

(٥) ذكر أبو على أحمد بن عمر بن رستة كثيرا من المعلمين فى هذا العصر، انظر: الأعلاق النفيسة المجلد السابع صفحة ٢١٦، ٢١٧ وقد ذكرهم تحت عنوان صناعات الأشراف.. وانظر: كتاب المحبر حيث ذكر كثيرا من المعلمين وبينهم بالتفصيل فى الصفحات: ٣٧٩ والصفحات: ٤٧٥-٤٧٧.

(٦) انظر: معجم الأدباء طبعة مصر ص ١٦ جـ١٢، وقد توفى الضحاك بن مزاحم سنة «١٠٥هـ».

(٧) انظر: الأعلاق النفيسة ص٢١٦.

وقد ازدادت الحركة العلمية فى أواخر القرن الأول، وظهرت الندوات التى تدل على آثار النهضة العلمية، فقد كان (عبد الحكم بن عمرو بن عبد الله بن صفوان الجمحى قد اتخذ بيتًا، فجعل فيه شطرنجات، ونردات، وقرقات[1]، ودفاتر فيها من كل علم، وجعل فى الجدار أوتادًا، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جر دفترا فقرأه، أو بعض ما يلعب به فلعب به مع بعضهم[2]).

فإذا رأينا - بعد ذلك - أن الحديث الشريف لم يدون تدوينا رسمياً فى عهد الرسول ﷺ، كما دون القرآن الكريم -فلابد لنا من البحث عن السبب الذى أدى إلى عدم تدوينه فى عصره ﷺ.

ونحن فى بحثنا هذا لا يمكننا أن نستسلم لتلك الأسباب التقليدية التى اعتاد الكاتبون أن يعللوا بها عدم التدوين، ولا نستطيع أن نوافقهم على ما قبلوه من أن قلة التدوين فى عهده ﷺ، تعود قبل كل شىء إلى ندرة وسائل الكتابة، وقلة الكتاب، وسوء كتابتهم[3] - لا يمكننا أن نسلم بهذا بعد أن رأينا نيفا وثلاثين كاتبا يتولون كتابة الوحى للرسول الكريم ﷺ وغيرهم يتولون أموره الكتابية الأخرى، ولا يمكننا أن نعتد بقلة الكتاب، وعدم إتقانهم لها، وفيهم المحسنون المتقنون أمثال زيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص، ولو قبلنا جدلا ما ادعوه من ندرة وسائل الكتابة وصعوبة تأمينها، لكفى فى الرد عليهم أن المسلمين دونوا القرآن الكريم ولم يجدوا فى ذلك صعوبة، فلو أرادوا أن يدونوا الحديث ما شق عليهم تحقيق تلك الوسائل، كما لم يشق هذا على من كتب الحديث بإذن رسول الله ﷺ، فلابد من أسباب أخرى، وإنا لنرى تلك الأسباب من خلال الآثار الثابتة عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة والتابعين، وسنرى أن تدوين الحديث مر بمراحل منتظمة حققت حفظه، وصانته من العبث، وقد تضامنت الذاكرة والأقلام، وكانا

---

(١) النردات: جمع نرد، ما يعرف اليوم بالطاولة. وقرقات: جمع قرق وهى لعبه للصبيان.

(٢) الأغانى ص٣٥٣ جـ٤.

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث، قال: (وكان غيره -ابن عمرو بن العاص- من الصحابة أميين لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجى) ص٣٦٦. إن هذا يتنافى مع ما بيناه من تعلم المسلمين للكتابة، فتعميم ابن قتيبة هذا لا يستند إلى دليل. وانظر: مقدمة ابن خلدون ص٥٤٢.

جنبًا إلى جنب فى خدمة الحديث الشريف، ونستعرض الآن تلك الآثار التى تلقى لنا بعض الضوء على حقيقة تدوين السنة.

أولاً: ما روى عن رسول الله ﷺ فى الكتابة

أ- ما روى من كراهة الكتابة:

١- روى أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تكتبوا عنى، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه**[١]» وهذا الحديث أصح ما ورد عن رسول الله ﷺ فى هذا الباب.

٢- وقال أبو سعيد الخدرى: (جهدنا بالنبى ﷺ أن يأذن لنا فى الكتاب فأبى) وفى رواية عنه قال: (استأذنا النبى ﷺ فى الكتابة فلم يأذن لنا[٢]).

٣- روى عن أبى هريرة أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث، فقال: «**ما هذا الذى تكتبون؟**». قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: «**كتاب غير كتاب الله!؟ أتدرون؟ ماضل الأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى**[٣]».

ب- ما روى من إباحة الكتابة:

١- قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما: كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله ﷺ، أريد حفظه فنهتنى قريش، وقالوا تكتب كل شىء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم فى الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «**اكتب فوالذى نفسى بيده ما خرج منه إلا حق**[٤]».

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ص١٢٩ جـ١٨ وجامع بيان العلم وفضله ص٦٣ جـ١.

(٢) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٥ جـ٤. والإلماع ص٢٨ ونحوه فى تقييد العلم ص٣٢، ٣٣.

(٣) تقييد العلم ص٣٤.

(٤) سنن الدارمى ص١٢٥ جـ١ ونحوه فى ص١٢٦ جـ١ ونحوه فى تقييد العلم بطرق كثيرة ص٧٤-٨٣. وفى جامع بيان العلم ص٧١ جـ١ والإلماع ص٢٧: ب.

٢- قال أبو هريرة رضى الله عنه: (ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[١]).

٣- روى عن أبى هريرة أن رجلا من الأنصار كان يشهد حديث رسول الله ﷺ فلا يحفظه، فيسأل أبا هريرة فيحدثه، ثم شكا قلة حفظه إلى الرسول ﷺ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام: «**استعن على حفظك بيمينك**[٢]».

٤- روى عن رافع بن خديج أنه قال: قلنا: يا رسول الله ، إنا نسمع منك أشياء، أفنكتبها؟ قال: «**اكتبوا ولا حرج**[٣]».

٥- روى عن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قيدوا العلم بالكتاب**[٤]».

٦- روى عن رسول الله ﷺ أنه كتب كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره.[٥].

٧- روى عن أبى هريرة أنه لما فتح الله عن رسوله ﷺ مكة قام الرسول ﷺ وخطب فى الناس، فقام رجل من أهل اليمن يقال له أبو شاه، فقال:

---

(١) فتح البارى ص٢١٧ جـ١.

(٢) تقييد العلم ص٦٥، ٦٦ وفى الجامع لأخلاق الراوى ص٥٠:أ وقد أخرجه الترمذى أيضًا من طريق أبى هريرة انظر: توضيح الأفكار ص٣٥٣ جـ٢.

(٣) تقييد العلم ص٧٢، ٧٣، والمحدث الفاصل ص٣: ب جـ٤ مخطوطة دمشق وانظر: توضيح الأفكار ص٣٥٣ جـ٢. وقد ضعف «السيد رشيد رضا» صاحب المنار هذا الحديث انظر: مجلة المنار: ١٠/ ٧٦٣ وله رأى فى الأحاديث التى تسمح بالكتابة انظر: ص٧٦٥، ٧٦٦ جـ١٠ من المجلة.

(٤) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص٤٤:أ، وتقييد العلم ص٦٩، وجامع بيان العلم ص٧٢ جـ١، وقد ضعف السيد محمد رشيد رضا هذا الحديث لأن فى سنده عبد الحميد بن سليمان وقد تكلم فيه الذهبى. كما ضعفه من طريق عبد الله بن المؤمل الذى قال فيه الإمام أحمد (أحاديثه مناكير). انظر: مجمع الزوائد ص١٥٢ جـ١. أقول: إلا أن هذا الحديث روى من طريق إسماعيل بن يحيى عن ابن أبى ذؤيب عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ولا يطعن فيه تفرده به انظر: تقييد العلم ص٦٩، والسيد رشيد رضا ضعف الحديث من طريقيه الأولين فلا يطعن برواية إسماعيل بن يحيى هذه. انظر: مجلة المنار ص٧٦٣-٧٦٦ جـ١٠.

(٥) انظر: جامع بيان العلم وفضله: ص٧١ جـ١.

يا رسول الله ، اكتبوا لى، فقال: اكتبوا له[1] «قال أبو عبد الرحمن (عبد الله ابن أحمد): ليس يروى فى كتابة الحديث شىء أصح من هذا الحديث، لأن النبى ﷺ أمرهم: قال: «**اكتبوا لأبى شاه**[2]».

٨- روى عن ابن عباس أنه قال: لما اشتد بالنبى ﷺ وجعه قال: «**إيتونى بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده**» قال عمر: إن النبى ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا، وكثر اللغط. قال: «**قوموا عنى، ولا ينبغى عندى التنازع**[3]» إن طلب الرسول هذا واضح فى أنه أراد أن يكتب شيئًا غير القرآن، وما كان سيكتبه هو من السنة، وإن عدم كتابته لمرضه لا ينسخ أنه قد هم به، وكان فى آخر أيام حياته عليه الصلاة والسلام، فيفهم من هذا إباحته عليه الصلاة والسلام الكتابة فى أوقات مختلفة، ولمواضيع كثيرة، فى مناسبات عدة، خاصة وعامة.

وإذا كانت الأخبار الدالة على إباحة الكتابة منها خاص كخبر أبى شاه، فإن منها أيضا ما هو عام لا سبيل إلى تخصيصه، كسماحه لعبد الله بن عمرو بالكتابة وللرجل الأنصارى الذى شكا سوء حفظه. ويمكن أن نستشهد فى هذا المجال بخبر أنس ورافع بن خديج وإن تكلم فيهما، لأن طرقهما كثيرة يقوى بعضها بعضا؛ وللعلماء مع هذا آراء فى هذه الأخبار سأوجزها فيما يلى:

حاول العلماء أن يوفقوا بين ما ورد من نهى عن الكتابة وما ورد من إباحة لها، وترجع آراؤهم إلى أربعة أقوال:

الأول: قال بعضهم إن حديث أبى سعيد الخدرى موقوف عليه فلا يصلح للاحتجاج به. وروى هذا الرأى عن البخارى وغيره[4]، إلا أننا لا نسلم بهذا

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٢٣٢ جـ١٢ وفتح البارى ص٢١٧ جـ١، وجامع بيان العلم ص٧٠ جـ١ وتقييد العلم ص٨٦.

(٢) مسند الإمام أحمد ص٢٣٥ جـ١٢.

(٣) فتح البارى ص٢١٨ جـ١ وصحيح الإمام مسلم ص١٢٥٧، ١٢٥٩ جـ٣ وفى طبقات ابن سعد ص٣٦، ٣٧ جـ٢.

(٤) انظر: فتح البارى ص٢١٨ جـ١، وانظر: الباعث الحثيث ص١٤٨، وتوضيح الأفكار ص٣٥٣ جـ٢ وتدريب الراوى ص٢٨٧ ومنهج ذوى النظر ص١٤٢.

لأنه ثبت عند الإمام مسلم، فهو صحيح، ويؤيد صحته ويعضده ما رويناه عن أبى سعيد رضى الله عنه: «استأذنت النبى ﷺ أن أكتب الحديث، فأبى أن يأذن لى[1]».

الثانى: أن النهى عن الكتابة إنما كان فى أول الإسلام مخافة اختلاط الحديث بالقرآن، فلما كثر عدد المسلمين، وعرفوا القرآن معرفة رافعة للجهالة، وميزوه من الحديث ـ زال هذا الخوف عنهم، فنسخ الحكم الذى كان مترتبًا عليه، وصار الأمر إلى الجواز[2]. وفى هذا قال الرامهرمزى: (وحديث أبى سعيد «حرصنا أن يأذن لنا النبى ﷺ فى الكتاب فأبى» أحسب[3] أنه كان محفوظًا فى أول الهجرة، وحين كان لا يؤمن الاشتغال به عن القرآن[4]) والقول بالنسخ أحد المعنيين اللذين فهمها ابن قتيبة من تلك الأخبار. فقال: (أحدهما: أن يكون من منسوخ السنة بالسنة كأنه نهى فى أول الأمر أن يكتب قوله، ثم رأى بعد لما علم أن السنن تكثر وتفوت الحفظ أن تكتب وتقيد)[5]، ورأى هذا الرأى كثير من العلماء، وذهب إليه العلامة المحقق الأستاذ أحمد محمد شاكر[6]. فبعد أن دعم رأيه بالأخبار التى تبيح الكتابة قال: (كل هذا يدل على أن حديث أبى سعيد ـ **«لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه»** ـ منسوخ، وأنه كان فى أول الأمر، حين خيف اشتغالهم عن القرآن، وحين خيف اختلاط غير القرآن بالقرآن، وحديث أبى شاه فى أواخر حياة النبى ﷺ، وكذلك أخبار أبى هريرة ـ وهو متأخر الإسلام ـ أن عبد الله بن عمرو كان يكتب، وأنه هو لم يكن يكتب: يدل على أن عبد الله كان يكتب بعد إسلام أبى هريرة، ولو كان حديث أبى سعيد فى النهى متأخرًا عن هذه الأحاديث فى الإذن والجواز لعرف ذلك عند الصحابة يقينًا صريحًا[7]).

(١) تقييد العلم ص٣٢، ٣٣.

(٢) انظر: توضيح الأفكار ص٣٥٣، ٣٥٤ جـ٢.

(٣) فى الأصل (فأحسبه) وما أثبتناه أصح لغة.

(٤) المحدث الفاصل ص٧١:أ.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص٣٦٥.

(٦) انظر: الباعث الحثيث ص١٤٨.

(٧) المرجع السابق ص١٤٩.

ويمكن أن نلحق هنا الرأى الذى يقول: إن النهى إنما كان عن كتابة الحديث مع القرآن فى صحيفة واحدة، لأنهم كانوا يسمعون تأويل الآية، فربما كتبوه معه، فنهوا عن ذلك لخوف الاشتباه[1].

الثالث: أن النهى فى حق من وثق بحفظه وخيف اتكاله على الكتابة، والإذن فى حق من لا يوثق بحفظه كأبى شاه[2].

الرابع: أن يكون النهى عاما وخص بالسماح له من كان قارئا كاتبا مجيدا لا يخطئ فى كتابته، ولا يخشى عليه الغلط، كعبد الله بن عمرو الذى أمن عليه ﷺ كل هذا، فأذن له[3]. وهذا هو المعنى الآخر الذى فهمه ابن قتيبه من تلك الأخبار.

ورأينا فى هذه الأخبار هو صحة ما روى عن أبى سعيد من النهى، وصحة ما ورد عن غيره من إباحة الكتابة، فنحن لا نقول بوقف خبر أبى سعيد عليه. فالرأى الأول مردود، ويمكن أن تكون جميع هذه الآراء الثلاثة صوابا، فنهى عليه الصلاة والسلام عن كتابة الحديث الشريف مع القرآن فى صحيفة واحدة خوف الالتباس، وربما يكون نهيه عن كتابة الحديث على الصحف أول الإسلام حتى لا يشغل المسلمون بالحديث عن القرآن الكريم، وأراد أن يحفظ المسلمون القرآن فى صدورهم وعلى الألواح والصحف والعظام توكيدا لحفظه، وترك الحديث للممارسة العملية، لأنهم كانوا يطبقونه: يرون الرسول فيقلدونه، ويسمعون منه فيتبعونه، وإلى جانب هذا سمح لمن لا يختلط عليه القرآن بالسنة أن يدون السنة كعبد الله بن عمرو، وأباح لمن يصعب عليه الحفظ أن يستعين بيده حتى إذا حفظ المسلمون قرآنهم وميزوه عن الحديث جاء نسخ النهى بالإباحة عامه، وإن وجود علة من علل النهى السابقة لا ينفى وجود غيرها ولا يتعارض معه، كما أن وجود علة النهى لا ينفى تخصيص هذا النهى بالسماح لبعض من لا تتحقق فيهم هذه

(١، ٢) انظر: فتح المغيث ص١٨ جـ٣ وانظر: توضيح الأفكار ص٣٥٤ جـ٢.

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث ص٣٦٥، ٣٦٦.

العلة. فالنهى لـم يكن عاما، والإباحة لـم تكن عامة فى أول الإسـلام، فحيثـما تحققت علة النهى منعت الكتابة، وحيثما زالت أبيحت الكتابة.

وأرى فى حـديث أبى شاه وفى حـديث ابن عبـاس: «ايتونى بكتـاب..» إذنًا عامّاً، وإباحةً مطلقة للكتابة، وعلـى هذا لا تعارض بين جميع تلك الروايات فقد سهل التوفيق بينها وتبين وجه الصواب. وانتهى أمر رسول الله ﷺ بإباحة الكتابة، وسنرى فيما بعد بعض ما دون فى عهده ﷺ.

ثانيا: كتابة الحديث فى عصر الصحابة

مع مـا روى عن النبى ﷺ من إباحـة للكتـابة، ومع مـا كتب فـى عهـده من الأحاديث على يدى من سمح لهم بالكتابة ـ نرى الصحابة يحجمون عن الكتابة، ولا يقدمـون عليها فى عـهد الخلافـة الراشدة، حرصًـا منهم على سلامـة القرآن الكريم والسنة الشريفة، فنجد بينهم رضـوان الله عليهم من كره كتابة السنة، ومن أباحهـا، ثم ما لبث الأمر أن كثـر المجيزون للكتـابة، بل روى عن بعض من كره الكتابة أولا إباحته لها آخرا، وذلك حين زالت علة الكراهة.

روى الحاكم بسنـده عن القاسم بن محـمد عن عـائشة رضى الله عنهـا قالت: جمع أبى الحديـث عن رسول الله ﷺ، وكان[1] خمـسمائة حديث، فـبات ليلة يتقلب كثيـرًا.. فلما أصبح قال: (أى بنية، هلمى الأحاديث التى عندك، فـجئته بها، فدعا بنار فحرقها[2]).

وهذا عمـر بن الخطاب يفكر فى جمع السنة، ثم لا يلـبث أن يعدل عن ذلك: (عن عروة ـ بن الزبير ـ أن عـمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن فاسـتفتى أصـحاب النبى ﷺ فى ذلك، فأشـاروا عليه بأن يكتـبها، فطفق عـمر يستخير الله فيها شـهرا، ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له، فقال: إنى كنت أريد أن

(١) فى الأصل (كانت) وما أثبتناه أصح لتستقيم العبارة.

(٢) تذكرة الحفاظ ص٥ جـ١.

أكتب السنن، وإنى ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبدا[1])، وفى رواية عن طريق مالك ابن أنس أن عمر قال عندما عدل عن كتابة السنة: «لا كتاب مع كتاب الله[2]».

وكان خوف عمر من إقدامه على كتابة السنة أن ينكب المسلمون على دراسة غير القرآن ويهملوا كتاب الله عز وجل[3]، ولذلك نرى عمر رضى الله عنه يمنع الناس من أن يتخذوا كتابًا مع كتاب الله، وينكر إنكارًا شديدًا على من نسخ كتاب (دانيال) ويضربه ويقول له: (انطلق فامحه. . ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحدًا من الناس، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدًا من الناس لأنهكنك عقوبة[4]) ولهذا نراه يخطب فى الناس قائلا: (أيها الناس، إنه قد بلغنى أنه قد ظهرت فى أيديكم كتب، فأحبها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقين أحد عنده كتاب إلا أتانى به، فأرى فيه رأيى ـ قال ـ فظنوا أنه يريد أن[5] ينظر فيها، ويقومها على أمر لا يكون فيه اختلاف، فأتوه بكتبهم فأحرقها بالنار ثم قال: «أمنية كأمنية أهل الكتاب[6]) كما أنه كتب إلى الأمصار (من كان عنده منها شيء فليمحه[7])).

كل هذا يدل على خشية عمر من أن يهمل كتاب الله أو أن يضاهى به كتاب غيره، ونحن نرى عمر نفسه يأبى أن يبقى رأيه مكتوبًا ويأبى إلا أن يمحوه، فعندما طعن استدعى طبيبا، فعرف دنو أجله، فنادى ابنه قائلا: «يا عبد الله ابن عمر، ناولنى الكتف، فلو أراد الله أن يمضى ما فيه أمضاه، فقال له ابن عمر: أنا أكفيك محوها، فقال: لا والله، لا يمحوها أحد غيرى»، فمحاها عمر بيده، وكان فيها فريضة الجد[8].

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٦٤ جـ١، ونحوه فى تقييد العلم ص٥٠، وطبقات ابن سعد ص٢٠٦ قسم ١ جـ٣.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٦٤ جـ١.

(٣) انظر: تقييد العلم ص٥٠.

(٤) تقييد العلم ص٥٢ ونحوه مختصرا فى جامع بيان العلم ص٤٢ جـ٢، وفى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٤٦: ب.

(٥) زدنا (أن) على الأصل لتستقيم العبارة.

(٦) تقييد العلم ص٥٢، رواه محمد بن القاسم.

(٧) تقييد العلم ص٥٣ وجامع بيان العلم وفضله ص٦٥ جـ١.

(٨) طبقات ابن سعد ص ٢٤٧ قسم ٢ جـ٣.

ونرى عمر نفسه حين يأمن حفظ القرآن، يكتب بشيء من السنة إلى بعض عماله وأصحابه (عن أبى عثمان «النهدى» قال: كنا مع عتبة بن فرقد، فكتب إليه عمر بأشياء يحدثه عن النبى ﷺ، فكان فيما كتب إليه: إن رسول الله ﷺ قال: **«لا يلبس الحرير فى الدنيا إلا من ليس له فى الآخرة منه شيء إلا هكذا، وقال بأصبعيه السبابة والوسطى»**. قال أبو عثمان: فرأيت أنها أزرار الطيالسة حين رأينا الطيالسة[1]).

وروى عن عبد الله بن مسعود كراهيته لكتابة الحديث الشريف: (عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: جاء علقمة بكتاب من مكة أو اليمن، صحيفة فيها أحاديث فى أهل البيت: بيت النبى ﷺ، فاستأذنا على عبد الله، فدخلنا عليه، قال: فدفعنا إليه الصحيفة، قال: فدعا الجارية، ثم دعا بطست فيه ماء، فقلنا له يا أبا عبد الرحمن، انظر فيها، فإن فيها أحاديث حسانا. قال: فجعل يمحيها[2] فيها ويقول: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ**﴾ [يوسف:٣]، القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه[3]).

إلا أن هناك رواية تنص على أن ما فى الصحيفة كان من كلام أبى الدرداء وقصصه،[4] وفى رواية قال أحد الرواة: (يرى أن هذه الصحيفة أخذت من أهل الكتاب، فلهذا كره عبد الله النظر فيها[5]) ولا يمكننا أن نجزم بأن ما فى تلك الصحيفه كان من القصص أو مما أخذ عن أهل الكتاب، لأنه ثبت عن الأسود ابن هلال أنه قال: (أتى عبد الله بصحيفة فيها حديث، فدعا بماء فمحاها، ثم غسلها، ثم أمر بها فأحرقت، ثم قال: أذكِّر الله رجلا يعلمها عند أحد إلا أعلمنى

---

(١) مسند الإمام أحمد ص٢٦١ جـ١.

(٢) ماثه: مرسه، أى فركه ليذوب فى الماء وتتفرق أجزاؤه.

(٣) تقييد العلم ص٥٤ وورد عنه النهى عن كتابة ما سوى القرآن عندما علم أن بعضهم يكتب كلامه انظر: سنن الدارمى ص١٢٥ جـ١ .

(٤) انظر: تقييد العلم ص٥٤، ٥٥.

(٥) جامع بيان العلم وفضله ص٦٦ جـ١ ونحو هذا فى سنن الدارمى ص١٢٤ جـ١.

به، والله لو أعلم أنها بدير هند لبلغتها، بهذا أهلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون[1])، إن تصرف ابن مسعود يدل على أنه خشى أن يشتغل الناس بكتابة السنة ويدعوا القرآن، أو أن يشتغلوا بغير القرآن الكريم، ونراه يكتب بعض السنة بيده حين زالت علة المنع، فعن مسعر عن معن قال: (أخرج إلىَّ عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا وحلف لى أنه خط أبيه بيده[2]).

وهذا على رضى الله عنه يخطب فى الناس قائلا: (أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم[3]).

وأبى زيد بن ثابت أن يكتب عنه مروان بن الحكم[4] وقال: (لعل كل شىء حدثتكم به ليس كما حدثتكم[5]) وفى رواية قال: (إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئا من حديثه)[6].

وكذلك أبى أبو هريرة أن يكتب عنه كاتب مروان بن الحكم[7] وكان أحيانًا يقول: إن أبا هريرة لا يكتم ولا يكتب[8]، وفى رواية (نحن لا نكتب ولا نكتِّب)[9].

وقال ابن عباس: (إنا لا نكتب العلم ولا نكتِّبه[10])، وعن سعيد بن جبير عن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ص٦٥ جـ١، ونحوه فى سنن الدارمى وفيه لو أنها «بدار الهندارية» يعنى ـ مكانا بعيدا بالكوفة ـ إلا أتيته ولو مشيا ص١٢٤ جـ١.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٧٢ جـ١.

(٣) المرجع السابق ص٦٣ جـ١.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص٦٣ جـ١.

(٥) المرجع السابق ص٦٥ جـ١.

(٦) تقييد العلم ص٣٥.

(٧) انظر: تقييد العلم ص٤١ والإصابة ص٢٠٢ جـ٧.

(٨) انظر: طبقات ابن سعد ص١١٩ قسم ٢جـ٢ ونحوه فى تقييد العلم ص٤٢.

(٩) جامع بيان العلم ص٦٦ جـ١ وقارن بسنن الدارمى ص١٢٢ جـ١.

(١٠) جامع بيان العلم ص٦٥ جـ١ ونحوه فى تقييد العلم ص٤٢.

ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان ينهى عن كتابة العلم، وقال: (إنما ضل من كان قبلكم بالكتب[1]).

وقد تمسك أبو سعيد الخدرى بحديث رسول الله ﷺ الذى رواه فى النهى عن كتابة غير القرآن. وأبى أن يكتب أبا نضرة حين قال له هذا: ألا تكتبنا فإنا لا نحفظ؟ فقال أبو سعيد: لا إنا لن نكتبكم، ولن نجعله قرآنًا، ولكن احفظوا عنا كما حفظنا نحن عن رسول الله ﷺ[2].

ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أنه كان يكره كتابة الحديث، روى عن سعيد بن جبير أنه قال: (كنا نختلف فى أشياء فنكتبها فى كتاب، ثم أتيت بها ابن عمر أسأله عنها خفيًا[3]، فلو علم بها كانت الفيصل بينى وبينه[4]).

وكره أبو موسى أن يكتب ابنه عنه مخافة أن يزيد أو ينقص، ومحا ما كتبه بالماء[5] وفى رواية قال: (احفظوا عنا كما حفظنا[6])، وفى رواية عنه أنه قال: (إن بنى إسرائيل كتبوا كتابا واتبعوه وتركوا التوارة)[7].

هؤلاء معظم الذين كرهوا كتابة الحديث فى الصدر الأول، حاولت أن أثبت رأى كل منهم إلى جانب وجهة نظره فيما ذهب إليه من المنع والكراهة، لأتمكن من استنتاج أسباب هذه الكراهة، فوجدت كما قال الخطيب البغدادى: (أن كراهة الكتاب فى الصدر الأول إنما هى لئلا يضاهى بكتاب الله تعالى غيره. أو يُشْتَغَل

---

(١) جامع بيان العلم ص٦٥ جـ١، وتقييد العلم ص٤٣.

(٢) سنن الدارمى ص١٢٢ جـ١، وانظر: تقييد العلم فيه روايات مختلفة عنه ص٣٦-٣٨. وكذلك فى جامع بيان العلم وفضله ص٦٤ جـ١، وفى رواية عن أبى سعيد قال: «أتريدون أن تجعلوها مصاحف، إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ فاحفظوا كما كنا نحفظ» انظر: جامع بيان العلم ص٦٤ جـ١ وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩١.

(٣) يريد خفية. أى ينظر إلى الكتاب من غير أن يشعر ابن عمر بذلك.

(٤) جامع بيان العلم ص٦٦ جـ١ وتقييد العلم ص٤٤.

(٥) انظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٦ جـ٤ وقارن بكتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٣ وسنن الدارمى ص١٢٢ جـ١.

(٦) جامع بيان العلم ص٦٦ جـ١.

(٧) تقييد العلم ص٥٦.

عن القرآن بسواه؛ ونُهى عن الكُتُب القديمة أن تتخذ، لأنه لا يعرف حقها من باطلها؛ وصحيحها من فاسدها مع أن القرآن كفى منها، وصار مهيمنًا عليها، ونهى عن كتب العلم فى صدر الإسلام وجدته، لقلة الفقهاء فى ذلك الوقت، والمميزين بين الوحى وغيره، لأن أكثر الأعراب لم يكونوا فقهوا فى الدين، ولا جالسوا العلماء العارفين، فلم يؤمن أن يُلحقوا ما يجدون من الصحف بالقرآن، ويعتقدوا أن ما اشتملت عليه كلام الرحمن)[1]، أضف إلى هذا ورع الصحابة وخشيتهم من أن يكون ما يملونه أو يقيدونه غير ما سمعوه من الرسول عليه الصلاة والسلام.

من أجل هذا أولى الصحابة رضوان الله عليهم كتاب الله عز وجل فى هذه الحقبة عناية الحفظ فى الصحف والمصاحف وفى الصدور، وجمعوه فى عهد الصديق، ونسخوه فى عهد عثمان، وبعثوا به إلى الآفاق، ليضمنوا حفظ المصدر التشريعى الأول من أن تشوبه أية شائبة، ثم حافظوا على السنة بدراستها ومذكراتها وكتابتها أحيانًا عند زوال مانع الكراهة، وقد ثبت عن كثير من الصحابة الحثُ على كتابة الحديث. وإجازة تدوينه.

ولا نشك فى هذه الأخبار كما شك غيرنا، لأننا لا نرى فيها ذلك التعارض الذى تصوره بعض المستشرقين[2]، حتى استجازوا لأنفسهم أن يحكموا على بعضها بالوضع والاختلاق، وسنوجز فيما يلى بعض ما روى عن الصحابة من إجازة تقييد الحديث، ليتبين صحة ما ذهبنا إليه.

وقبل أن أتناول هذه الأخبار لابد لى من أن أقلب النظر فيما روى عن محاولة عمر رضى الله عنه جمع السنة وتدوينها، كما جمع القرآن الكريم، ثم عدوله عن ذلك خوفًا من أن يلتبس الكتاب بالسنة، وخشية ألا يميز المسلمون الجدد بينهما. أقول: إن محاولته هذه تدل على اقتناعه بجواز كتابة الحديث الشريف، وهذا ما انتهى به أمر رسول الله ﷺ بعد النهى عن الكتابة، ولو شك عمر رضى الله عنه

(١) تقييد العلم ص٥٧.

(٢) سنتكلم بعد قليل عن رأى جولد تسيهر فى هذه الأخبار.

فى الجواز ـ ما هم بأن يفعل ما منعه رسول الله ﷺ، وما كرهه، فإحجام الفاروق لم يكن لكراهة الكتابة، بل لمانع يقتضى أن يتريث فى التدوين والجمع لمصلحة أخطر وأعظم، ولذلك رأيناه يكتب بنفسه لمن يأمن عليه اللبس ويثق به، وربما سمح عمر رضى الله عنه بالكتابة بعد أن رأى حفظ الأمة لكتاب الله تعالى بجمعه فى المصحف الشريف، ويقوى هذا ما يروى عن عمرو بن أبى سفيان من أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: (قيدوا العلم بالكتاب)[1].

ثم إن بعض الصحابة أنفسهم قد أجاز الكتابة، وكتب بعضهم بيده، وتغير رأى من عرف منهم النهى عن كتابة الحديث حينما زالت أسباب المنع، وخاصة بعد أن جمع القرآن فى المصاحف وأرسل إلى الآفاق.

ولا ينقض هذا الرأى الذى ذهبنا إليه ـ ما روى عن أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق كتب له فرائض الصدقة التى سنها رسول الله ﷺ[2] بأن هذا كان قبل نسخ المصاحف، لأننا لم نجعل الخشية من التباس الكتاب بالسنة السبب الوحيد لمنع الكتابة، بل هناك أسباب أخرى قد ذكرتها فيما سبق، ثم إن أنسا رضى الله عنه ممن لا يلتبس عليه ذلك، لأنه خدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وعرفه وتلقى عنه عشر سنوات، وعلى هذا نقول: إنه ثبت عن أبى بكر كتابة شىء من السنة وكذلك ثبت عن الفاروق مثل ذلك[3].

وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه يقول: (ما كنا فى عهد رسول الله ﷺ إلا الاستخارة والتشهد)[4] فهذا دليل على كتابة الصحابة غير القرآن الكريم فى عهده ﷺ، وعلى عدم كراهة ابن مسعود للكتابة، وقد روينا خبر الكتاب الذى كان عند ابنه بخط يده[5].

---

(١) تقييد العلم ص٨٨، وجامع بيان العلم ص٧٢ جـ١. ووجد ابن عمر فى قائم سيف أبيه صحيفة. انظر: الكفاية ص٣٥٤، وتوجيه النظر ص٣٤٨.

(٢) انظر: تقييد العلم ص٨٧، وفى مسند الإمام أحمد أن أبا بكر كتب لهم (إن هذه فرائض الصدقة التى فرض رسول الله) انظر: ص١٨٣ جـ١.

(٣) انظر: مسند الإمام أحمد ص٢٦١ جـ١ والكفاية ص٣٣٦.

(٤) مصنف ابن أبى شيبة ص١١٥: ب، جـ١.

(٥) انظر: جامع بيان العلم ص٧٢ جـ١.

وروى عن على رضى الله عنه أنه كان يحض على طلب العلم وكتابته، فقد قال: (من يشترى منى علمًا بدرهم؟ قال أبو خيثمة: يقول: يشترى صحيفة بدرهم يكتب فيها العلم)[1]، وخبر صحيفة على رضى الله عنه مشهور، وقد كانت معلقة فى سيفه، فيها أسنان الإبل وشىء من الجراحات[2]...

وهذا الحسن بن على رضى الله عنهما يقول لبنيه وبنى أخيه: (تعلموا تعلموا، فإنكم صغار قوم اليوم، تكونون كبارهم غدًا، فمن لم يحفظ منكم فليكتب)[3]، وفى رواية: (فليكتبه، وليضعه فى بيته)[4].

وهذه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقول لابن أختها عروة بن الزبير: (يا بنى، بلغنى أنك تكتب عنى الحديث ثم تعود فتكتبه، فقال لها: أسمعه منك على شىء، ثم أعود فأسمعه على غيره، فقالت: هل تسمع فى المعنى خلافًا؟ قال: لا. قالت لا بأس بذلك)[5]، فلو كرهت عائشة رضوان الله عليها الكتابة لمنعته ونهته، ولكنه لم يحدث شىء من هذا، بل لم تر بأسًا بعمله.

وهذا أبو هريرة رضى الله عنه يسمح لبشير بن نهيك أن يكتب عنه، ويجيزه بالرواية عنه[6] وفى رواية يقول بشير: (أتيت أبا هريرة بكتابى الذى كتبته، فقرأته عليه فقلت: هذا سمعته منك؟ قال: نعم)[7]، وروى عمرو بن أمية الضمرى أنه رأى كتبًا كثيرة عند أبى هريرة[8].

---

(١) العلم لزهير بن حرب ص١٩٣: ب وتقييد العلم ص٩٠.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد ص٤٥ و١٢٢ جـ٢، وغيرها وتقييد العلم ص٨٨، ٩٩ وجامع بيان العلم ص٧١ جـ١ وفتح البارى ص٨٣ جـ٧.

(٣) الكفاية ص٢٢٩.

(٤) تقييد العلم ص٩١.

(٥) الكفاية ص٢٠٥.

(٦) انظر: العلم لزهير بن حرب ص١٩٣: ب والمحدث الفاصل ص١٢٨.

(٧) طبقات ابن سعد ص ١٦٢ جـ٧ وجامع بيان العلم ص٧٢جـ١، والعلم لزهير ص١٩٣ والكفاية ص٢٥٥، ٢٨٣.

(٨) انظر: جامع بيان العلم ص٧٤ جـ١، وفتح البارى ص ٢١٧ جـ١ كما أنه أملى بعض أحاديثه على همام ابن منبه وسنتعرض لذلك.

وكتب معاوية بن أبى سفيان إلى المغيرة بن شعبة: (اكتب إلىَّ بشىء سمعته من رسول الله ﷺ، فكتب المغيرة إليه: أنه كان ينهى عن قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)[1].

وكتب زياد بن أبى سفيان إلى السيدة عائشة رضى الله عنها يسألها عن الحاج الذى يرسل هَدْيَهُ، وهل يحرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر، كما أفتى ابن عباس؟ فأجابته عن هدى رسول الله ﷺ، وقالت: (فلم يحرم رسول الله ﷺ شىء أحله الله له حتى نحر الهدى)[2].

وهذا ابن عباس يسأل أبا رافع صاحب رسول الله ﷺ ومعه من يكتب له[3]، وفى رواية أنه كانت معه ألواح يكتب فيها[4]، وكان ابن عباس يحض على التعلم والكتابة ويقول: (قيدوا العلم بالكتاب، من يشترى منى علمًا بدرهم)[5]، وكان يقول أحيانًا: (إنا لا نكتب فى الصحف إلا الرسائل والقرآن)[6] إلا أننا نرى ابن عباس نفسه يكتب غير الرسائل، فيملى التفسير على مجاهد بن جبير، ويقول له: اكتب[7]، ويكتب إليه الحجاج أمير العراق يستفتيه فى رجل أكره أخته، فيكتب إليه بحديث عن رسول الله ﷺ[8].

وسبق لى أن ذكرت كتابة عبد الله بن عمرو بن العاص، وسنتكلم عن صحيفته بعد قليل.

---

(١) معرفة علوم الحديث ص١٠٠ واختصر الحاكم الخبر وتجد تفصيل ما كتبه المغيرة إلى معاوية فى حديث جامع شامل للبخارى فى صحيحه. انظر: فتح البارى ص٩٥ جـ٩ طبعة مصر بولاق سنة ١٣١٢هـ.

(٢) الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة ص٩٥، ٩٦، وقد قال الإمام الزهرى: (أول من كشف الغمى عن الناس وبين لهم السنة فى ذلك عائشة..).

(٣) انظر: ترجمة عبد الله بن عباس فى الإصابة.

(٤) انظر: تقييد العلم ص٩١، ٩٢ و١٠٩.

(٥) العلم لزهير بن حرب ص٩٣ وجامع بيان العلم ص٧٢ جـ١، وتقييد العلم ص٩٢.

(٦) العلم لزهير بن حرب ص١٨٧.

(٧) انظر: تفسير الطبرى بتحقيق أحمد محمد شاكر ص٣١ جـ١.

(٨) انظر: البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث ص٢١٤، ٢١٥ جـ٢ وقد ذكر هذا فى سبب ورود حديث (من تخطى الحرمين فخطوا وسطه بالسيف) وهما حرمة الزنا وحرمة الأخوة. وكان ابن عباس يفتى كتابة أيضًا، انظر فتواه لنجدة بن عامر فى مسند الإمام أحمد ص٥٦ جـ٤.

وهذا أبو سعيد الخدرى الصحابى الذى روى عن رسول الله ﷺ حديث «... **من كتب عنى غير القرآن فليمحه**» يقول: (كنا لا نكتب إلا القرآن والتشهد)[١].

وكان البراء بن عازب صاحب رسول الله ﷺ يحدث ويكتب من حوله، فعن عبد الله بن خنيس قال: (رأيتهم عند البراء يكتبون على أيديهم بالقصب)[٢].

وهذا وراد كاتب المغيرة بن شعبة يكتب بين يدى المغيرة[٣].

ويروى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه كان لا يخرج من بيته غدوة حتى ينظر فى كتبه[٤].

وهذا أنس رضى الله عنه خادم رسول الله ﷺ وملازمه فى بيته ليلاً ونهاراً عشر سنوات، كان يقول لبنيه: (يا بنى قيدوا العلم بالكتاب)[٥]، وكان يملى الحديث[٦] حتى إذا ما كثر عليه الناس جاء بمجال[٧] من كتب، فألقاها ثم قال: (هذه أحاديث سمعتها وكتبتها عن رسول الله ﷺ وعرضتها عليها)[٨].

تلك أخبار متعاضدة، تثبت أن الصحابة رضوان الله عليهم قد أباحوا الكتابة، وكتبوا الحديث لأنفسهم، وكتب طلابهم بين أيديهم، وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه، كما ثبت ذلك عن على رضى الله عنه، وعن ابن عباس، وعن الحسن، وأنس بن مالك رضى الله عنهم، بعد أن كرهها بعض الصحابة عندما كانت أسباب المنع قائمة.

---

(١) تقييد العلم ص٩٣.

(٢) جامع بيان العلم ٨١ جـ١، وانظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٣: ب وتقييد العلم ص١٠٥.

(٣) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٨٧.

(٤) انظر: الآداب الشرعية ص١٢٥ جـ٢.

(٥) انظر: كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٢ وتقييد العلم ص٩٦ ونحوه وانظر: صحيح مسلم بشرح النووى ص ٢٤٤ جـ١ حيث أعجبه حديث فأمر ابنه بكتابته.

(٦) انظر: تاريخ بغداد ص ٢٥٩ جـ٨.

(٧) مجال جمع مجلة والمجلة صحيفة يكتب فيها، أى ألقى إليهم صحفًا. انظر: لسان العرب مادة (جلل) ص١٢٧ جـ١٣.

(٨) تقييد العلم ص٩٥، ٩٦.

ويتجلى لنا رجوع بعض من كره الكتابة عن رأيه مما رويناه عن ابن مسعود وعن أبى سعيد الخدرى، إذ بعد أن كانوا يكرهون أن يكتبوا فى الصحف غير القرآن كتبوا الاستخارة والتشهد، وفى هذا دليل واضح أن النهى عن كتب ما سوى القرآن إنما كان مخافة أن يضاهى بكتاب الله تعالى غيره، وأن يُشتغل عن القرآن بسواه، ويقول الخطيب البغدادى: (فلما أمن ذلك، ودعت الحاجة إلى كَتْب العلم - لم يُكره كَتْبه، كما لم تكره الصحابة كتب التشهد، ولا فرق بين التشهد وبين[1] غيره من العلوم فى أن الجميع ليس بقرآن، ولن يكون كتب الصحابة ما كتبوه من العلم وأمروا بكتبه إلا احتياطًا، كما كان كراهيتهم لكتبه احتياطًا، والله أعلم)[2].

ثالثًا: التدوين فى عصر التابعين

لقد تلقى التابعون علومهم على يدى الصحابة، وخالطوهم وعرفوا كل شىء عنهم، وحملوا الكثير الطيب من حديث رسول الله ﷺ عن طريقهم، وعرفوا متى كره هؤلاء كتابة الحديث ومتى أباحوه، فقد تأسوا بهم وهم الرعيل الأول الذين حفظوا القرآن والسنة، فمن الطبيعى أن تتفق آراء التابعين وآراء الصحابة حول حكم التدوين، فإن الأسباب التى حملت الخلفاء الراشدين والصحابة على الكراهة هى نفسها التى حملت التابعين عليها، فيقف الجميع موقفًا واحدًا، ويكرهون الكتابة مادامت أسباب الكراهة قائمة، ويجمعون على الكتابة وجوازها عند زوال تلك الأسباب، بل إن أكثرهم يحض على التدوين ويشجع عليه. ولن نستغرب أن نرى خبرين عن تابعى أحدهما يمنع الكتابة والآخر يبيحها، ولن نعجب من كثرة الأخبار التى تدل على الكراهة فى مختلف أجيال التابعين - كبارهم وأوساطهم وصغارهم - والأخبار التى تدل على الإباحة - مادمنا نوجه كل مجموعة من هذه الأخبار وجهة تلائم الأسباب التى أدت إليها، ونرى أن سبيل الصحابة المتأخرين وكبار التابعين إباحة تقييد الحديث، بشروط تمتنع معها كراهته المأثورة عندهم عن النبى وكبار الصحابة[3]، فقد تمتنع عن الكتابة من كبار

---

(١) كان ينبغى ألا يكرر (بين).

(٢) تقييد العلم ص٩٤.

(٣) انظر: تقييد العلم: انظر: تصدير أستاذنا الدكتور يوسف العش ص١٩ ومقالته فى مجلة الثقافة المصرية: العدد (٣٥٢) السنة السابعة الصفحة(٨).

التابعين عبيدة بن عمرو السلمانى المرادى (ـ ٧٢هـ). وإبراهيم بن يزيد التيمى (ـ٩٢هـ)، وجابر بن زيد (ـ٩٣هـ) وإبراهيم النخعى (ـ٩٦هـ)، ولم يرض عبيدة أن يكتب عنده أحد، ولا يقرأ عليه أحد[١]، وقد نصح إبراهيم فقال له: «لاتخلدن عنى كتابًا»[٢]،وقبل وفاته دعا بكتبه فأحرقها وقال: (أخشى أن يليها قوم يضعونها غير موضعها)[٣]، وكره إبراهيم النخعى أن تكتب الأحاديث فى الكراريس، وتشبه بالمصاحف[٤]، وكان يقول: (ما كتبت شيئًا قط)[٥]، حتى إنه منع حماد بن سليمان من كتابة أطراف الأحاديث[٦]، ثم تساهل فى كتابتها، قال ابن عون: (رأيت حمادًا يكتب عن إبراهيم فقال له إبراهيم: ألم أنهك؟ قال: إنما هى أطراف)[٧].

ونسمع عامرًا الشعبى (١٧ ـ ١٠٣هـ) يردد عبارته المشهورة: (ما كتبت سوداء فى بيضاء، ولا سمعت من رجل حديثًا فأردت أن يعيده علىَّ)[٨].

وقد ازدادت كراهة التابعين للكتابة عندما اشتهرت آراؤهم الشخصية، فخافوا أن يدونها طلابهم مع الحديث، وتحمل عنهم، فيدخله الالتباس.

(١، ٢) جامع بيان العلم ص ٦٧ جـ١ وتقييد العلم ص ٤٥، ٤٦ وانظر: كتاب العلم لزهير ص١٩٣: ب.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص ٦٧ جـ١ ونحوه فى سنن الدارمى ص١٢١ جـ١ وفى طبقات ابن سعد ص٦٣ جـ٦.

(٤) انظر: سنن الدارمى ص١٢١ جـ١، وجامع بيان العلم وفضله جـ١ وتقييد العلم ص٤٨.

(٥) تقييد العلم ص ٦٠، وكان يقول: (لا تكتبوا فتكلوا) وانظر: جامع بيان العلم ص٦٨ جـ١.

(٦) انظر: طبقات ابن سعد ص١٩٠ جـ١.

(٧) سنن الدارمى ص١٢٠ جـ١ ونحوه فى كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٤. قال أستاذنا الدكتور يوسف العش (ولقد تشدد بعضهم فأراد ألا يكون سبيل للشبه أبدًا فأحل كتابة العلم فى الأطراف ـ أى على أطراف العظام فقط ـ كإبراهيم النخعى، فهى صعبة الحفظ، والمضاهاة بينها وبين الكراريس بعيدة. اهـ) انظر: الصفحة (٧) من مجلة الثقافة المصرية عدد ٣٥٢ السنة السابعة. أقول: ليس المراد من الأطراف (أطراف العظام) بل أطراف الأحاديث. وهى أن يكتب المصنف طرف الحديث بحيث يعرف بقيته مع الجمع لأسانيده، ويوضح ما ذهبنا إليه رواية زهير بن حرب وفيها قول إبراهيم (لا بأس بكتاب الأطراف) انظر: كتاب العلم ص ١٩٤. وكتب الأطراف كثيرة عقد لها صاحب الرسالة المستطرفة بحثًا فى رسالته (صفحة ١٢٥ـ ١٢٧) وكتاب ذخائر المواريث) لعبد الغنى النابلسى هو أحد كتب الأطراف المشهورة.

(٨) العلم لزهير بن حرب ص ١٨٧ : ب وجامع بيان العلم ص٦٧ جـ١.

ويمكننا أن نستنبط أن من كره الكتابة وأصر، إنما كره أن يدون رأيه، وفى هذا يقول أستاذنا الدكتور يوسف العش: (وأما ما ورد عنهم الامتناع عن الإكتاب من هذا الجيل، فيؤول امتناعهم بما لا يخالف ما انتهينا إليه، فهم جميعًا فقهاء[1] وليس بينهم محدث ليس بفقيه، والفقيه يجمع بين الحديث والرأى، فيخاف تقييد رأيه واجتهاده إلى جانب أحاديث الرسول ﷺ)[2]. ويوضح هذا بأمثلة تثبت ما ذهب إليه، فيقول: (إننا نجد فى الواقع أخبارًا تروى كراهتهم لكتابة الرأى، كاعتذار زيد بن ثابت عن أن يكتب عنه كتّاب مروان... وجاء رجل إلى سعيد ابن المسيب - وهو من الفقهاء الذين روى امتناعهم عن الإكتاب - فسأله عن شىء فأملاه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجابه، فكتب الرجل، فقال رجل من جلساء سعيد: أيكتب يا أبا محمد رأيك؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فحرقها[3]، وقيل لجابر بن زيد: إنهم يكتبون رأيك، قال: تكتبون ما عسى أرجع عنه غدًا[4]؟

وكل هذه الأقوال رويت من علماء، حدث المؤرخون عنهم أنهم كرهوا إكتاب الناس، وهى تدل دلالة صريحة على أن الكراهة ليست فى كتابة العلم أى الحديث، بل فى كتابة الرأى، وأن الأخبار التى وردت فى النهى دون تخصيص إنما قصد بها الرأى خاصة. ويشابه هذا الأمر ما حدث فى أمر كراهة الرسول والصحابة الأولين: من التباس الحديث بالقرآن، أو الانكباب عليه دونه، فما كانوا يخشونه من الحديث، أصبح خشية التابعين الأولين من الرأى والتباسه بالحديث)[5].

ويقوى هذا الرأى عندنا ما ورد عن هؤلاء التابعين من أخبار يحثون فيها على الكتابة، ويسمحون لطلابهم أن يكتبوا عنهم، وقد نشطت الكتابة عندما فرق

---

(١) ذكر أستاذنا هنا أسماء بعض من ذكرتهم قبل وأضاف سعيد بن المسيب (-٩٤هـ). وطاوس (-١٠٦هـ) والقاسم (١٠٧هـ) وغيرهم. انتهى ما لم نذكره فى النص.

(٢) تقييد العلم: التصدير ص ٢٠.

(٣) راجع الخبر فى جامع بيان العلم ص١٤٤ جـ٢.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٣١ جـ٣.

(٥) مجلة الثقافة المصرية: الصفحة ٨، ٩ من العدد ٣٥٢ فى السنة السابعة.

طلاب العلم بين النهى عن كتابة الرأى والنهى عن كتابة الرأى مع الحديث، ونرى التابعين ينكبون على الكتابة فى حلقات الصحابة، بل إن بعضهم كان يحرص على الكتابة حرصًا شديدًا، فهذا سعيد بن جبير (ـ٩٥هـ) كان يكتب عن ابن عباس، فإذا ما امتلأت صحفه كتب فى نعله حتى يملأها[١]، وعنه قال: (كنت أسير بين ابن عمر وابن عباس، فكنت أسمع الحديث منهما، فأكتبه على واسطة الرحل حتى أنزل فأكتبه)[٢]، ورخص سعيد بن المسيب (ـ٩٤هـ) لعبد الرحمن بن حرملة بالكتابة حينما شكا إليه سوء حفظه[٣]، ونرى عامرًا الشعبى بعد أن كان يقول: ما كتبت سوداء فى بيضاء ـ يردد قوله: (الكتابة قيد العلم)[٤]، وكان يحض على الكتابة ويقول: (إذا سمعتم منى شيئًا فاكتبوه ولو فى حائط)[٥]، ومع هذا، فقد روى أنه لم يوجد له بعد موته إلا كتاب بالفرائض والجراحات[٦]، وإذا كانت كتبه التى تركها قليلة وتدل على نشاطه العلمى - فإننا نعزو هذا إلى قوة حافظته، لأنه كان يعتمد على الحفظ أكثر من اعتماده على الكتابة، وهذا لا ينافى قط إملاءه لطلابه وحثهم على الكتابة. ويقول الضحاك بن مزاحم (ـ ١٠٥هـ): (إذا سمعت شيئًا فاكتبه ولو فى حائط) كما أنه أملى على حسين بن عقيل مناسك الحج[٧].

وانتشرت الكتب حتى قال الحسن البصرى (ـ١١٠هـ): (إن لنا كتبًا كنا نتعاهدها)[٨]. وكان عمر بن عبد العزيز (٦١ ـ ١٠١هـ) يكتب الحديث، روى

(١) انظر: تقييد العلم ص١٠٢وانظر: المحدث الفاصل: نسخة دمشق ٤: ب جـ٤ قوله (كتبت فى ظهورهما حتى تمتلئا).

(٢) تقييد العلم ص ١٠٣ ونحوه فى جامع بيان العلم ص٧٢ جـ١ وقارن بطبقات ابن سعد ص١٧٩ ـ ١٨٠ جـ٦.

(٣) انظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٤: ب جـ٤، وجامع بيان العلم وفضله ص٧٣ جـ١ وتقييد العلم ص٩٩.

(٤) تقييد العلم ص٩٩، وجامع بيان العلم ص٧٥ جـ١.

(٥) المرجع السابق ص ١٠٠ وانظر: نحوه فى المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٤ : ب، جـ٤، والعلم لزهير ص١٩٣ : ب.

(٦) انظر: تاريخ بغداد ص ٢٣٢ جـ١١.

(٧) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص٧٢ جـ١.

(٨) جامع بيان العلم وفضله ص٧٤ جـ١، والعلم لزهير ص ١٨٩ : ب.

عن أبى قلابة قال: (خرج علينا عمر بن عبد العزيز لصلاة الظهر ومعه قرطاس ثم خرج علينا لصلاة العصر وهو معه، فقلت له: يا أمير المؤمنين، ما هذا الكتاب؟ قال: حديث حدثنى به عون بن عبد الله فأعجبنى فكتبته[1]. . .) وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل القرن الثانى. وقد كثرت الصحف والكتب فى ذلك الوقت حتى لنرى مجاهد بن جبر (ـ١٠٣هـ) يسمح لبعض أصحابه أن يصعدوا إلى غرفته فيخرج إليهم كتبه فينسخون منها[2].

ويطلب هشام بن عبد الملك من عامله أن يسأل رجاء بن حيوة (ـ١١٢هـ) عن حديث، فيقول رجاء: (فكنت قد نسيته لولا أنه كان عندى مكتوبًا)[3].

وكان عطاء بن أبى رباح (ـ١١٤هـ) يكتب لنفسه، ويأمر ابنه أحيانًا أن يكتب له[4]، وكان طلابه يكتبون بين يديه[5]، وقد بالغ فى حض طلابه على التعلم والكتابة، فعن أبى حكيم الهمذانى قال: (كنت عند عطاء بن أبى رباح، ونحن غلمان، فقال: يا غلمان، تعالوا اكتبوا، فمن كان منكم لا يحسن كتبنا له، ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا[6]!!).

ونشطت الحركة العلمية وازدادت معها الكتابة والقراءة على العلماء، ويدل على هذا ما روى عن الوليد بن أبى السائب قال: رأيت مكحولاً ونافعًا وعطاء تقرأ عليهم

---

(١) سنن الدارمى ص١٣٠ جـ١ وسمع من يزيد الرقاشى أحاديث عن أنس فكتبها وفرض له فى الديوان، انظر: المحدث الفاصل ص٣: ب، جـ٤ وسنتحدث عن خدمة عمر بن عبد العزيز للسنة وأمره بكتابتها بعد قليل.

(٢) انظر: سنن الدارمى ص ١٢٨ جـ١، وتقييد العلم ص١٠٥ ونرى فى سنن الدارمى ص١٢١ جـ١ أنه كان يكره أن يكتب العلم فى الكراريس، فتحمل الكراهة على أن يضاهى بهذه القرآن أو أن تؤول الكراريس إلى غير أهلها.

(٣) سنن الدارمى ص١٢٩ جـ١، وتقييد العلم ص١٠٨.

(٤) انظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٣ : ب جـ٤.

(٥) انظر: سنن الدارمى ص١٢٩ جـ١.

(٦) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٣: ب جـ٤.

الأحاديث[1]، وعن عبيد الله بن أبى رافع، قال: (رأيت من يقرأ على الأعرج ـ عبد الرحمن بن هرمز (ـ١١٧هـ)، حديثه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ، فيقول: هذا حديثك يا أبا داود؟ قال: نعم[2]..) وها هو ذا نافع مولى ابن عمر (ـ١١٧هـ) يملى العلم على طلابه، وطلابه يكتبون بين يديه[3]. ويصور لنا قتادة ابن دعامة السدوسى (ـ١١٨هـ) بإجابته لمن يسأله عن كتابة الحديث ـ موقف هذا الجيل من التابعين من الكتابة، بعد أن فشت فيهم وانتشرت وأصبحت من ضروريات كل طالب علم، فيقول: (وما يمنعك أن تكتب، وأخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢])[4]؟

وكثرت الصحف المدونة، حتى إن خالدًا الكلاعى (ـ١٠٤هـ) جعل علمه فى مصحف له أزرار وعُرا[5].

رابعًا: خدمة عمر بن عبد العزيز للسنة

عاش عمر بن عبد العزيز فى جو علمى، فلم يكن بعيدًا ـ وهو أمير الأمة ـ عن العلماء، ورأيناه يكتب بنفسه بعض الأحاديث، ويشجع العلماء، وقد رأى أن يحفظ حديث الرسول ﷺ ويجمعه، وربما دعاه إلى هذا نشاط التابعين آنذاك وإباحتهم للكتابة حين زالت أسباب الكراهة، لأننا لا نعقل أن يأمر بجمع السنة وتدوينها والعلماء كارهون لهذا، ولو كرهوا كتابتها ما استجابوا لدعوته، ومما لاشك فيه أن خشيته من ضياع الحديث دفعته إلى العمل لحفظه.

ويمكننا أن نضم إلى ما ذكرنا سببًا آخر كان له أثر بعيد فى نفوس العلماء حملهم على تنقيح السنة وحفظها، وهو ظهور الوضع بسبب الخلافات السياسية

---

(١) الكفاية فى علم الرواية ص٢٦٤.
(٢) طبقات ابن سعد ص٢٠٩ جـ٥.
(٣) انظر: سنن الدارمى ص١٢٦ و١٢٩ جـ١.
(٤) تقييد العلم ص١٠٣ وانظر: طبقات ابن سعد ص٢ قسم ٢ جـ٧ وما روى عنه فى سنن الدارمى من كراهية يحمل على الوجه الذى بيناه آنفًا، انظر: سنن الدارمى ص١٢٠ جـ١.
(٥) انظر: تذكرة الحفاظ ص٨٧ جـ١.

والمذهبية، ويؤكد لنا هذا ما يرويه أخو ابن شهاب الزهرى عنه قال: (سمعته - يعنى ابن شهاب - يقول: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها - ما كتبت حديثًا، ولا أذنت فى كتابه[1]) ورأى الزهرى هذا رأى أكثر علماء ذلك العصر، فإن حرصهم على حديث رسول الله ﷺ من أن يدرس لا يقل عن حرصهم على سلامته من الكذب والوضع، فكان هذان العاملان من أقوى العوامل التى حفزت همم العلماء إلى خدمة السنة وكتابتها، عندما تبنت الحكومة جمعها رسمياً على يدى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز، الذى اتخذ خطوة حازمة فكتب إلى الأفق: (انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه)[2].

وكان فيما كتب إلى أهل المدينة: (انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب أهله)[3]. وكان فى كتابه إلى أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم (- ١١٧هـ) عامله على المدينة أن (اكتب إلىّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ، وبحديث عمرة فإنى خشيت دروس العلم وذهابه)[4]. وفى رواية: أمره (أن يكتب له العلم من عند عمرة بنت عبد الرحمن (- ٩٨هـ)، والقاسم بن محمد (- ١٠٧هـ)، فكتبه له[5]) وفى رواية: (فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولا تقبَل إلا حديث النبى ﷺ، وليُفْشوا العلمَ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً)[6].

---

(١) تقييد العلم ص ١٠٨.

(٢) فتح البارى ص ٢٠٤ جـ١ رواه أبو نعيم فى تاريخ أصبهان.

(٣) سنن الدارمى ص ١٢٦ جـ١ وقارن بالمحدث الفاصل نسخة دمشق ص ٤: أ جـ٤ وقارن بكتاب الأموال ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٤) سنن الدارمى ص ١٢٦ جـ١، وقارن بطبقات ابن سعد ص ١٣٤ قسم٢ جـ٢ وبالأموال لابن سلام ص ٥٧٨ وبالتاريخ الصغير ص ١٠٥ وتقييد العلم ص ١٠٥.

(٥) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢١، والمراد أن يكتب له حديث عمرة، لأنها توفيت قبل سنة (٩٩هـ)، السنة التى تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة، وواضح هذا فى الخبر الذى قبله.

(٦) فتح البارى ص ٢٠٤ جـ١.

كـما أمـر ابن شهـاب الزهرى (ـ ١٢٤هـ) وغـيره بجـمع السنن[١]، وربما لم يكتف عمر بن عبد العزيز بأمر من أمـرهم بجمع الحديث، فأرسل كتبًا إلى الآفاق يحث المسؤولين فيها على تشجيع أهل العلم على دراسة السنة وإحيائها، ومن هذا ما يرويه عكرمة بن عمار قال: (سمعت كتـاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد فأمروا أهل العـلم أن ينتشروا فى مسـاجدهم فإن السنة كانت قـد أميتت»[٢] كما كتب (إنه لا رأى لأحـد فى كتاب، وإنما رأى الأئمة فـيما لم ينزل فيـه كتاب ولم تمض به سنة من رسول الله ﷺ، ولا رأى لأحد فى سنة سنها رسول الله ﷺ)[٣]، بل هناك أخبار تثبت أن عمر بن عبد العزيز قد شارك العلماء فى مناقشة بعض ما جـمعوه، من ذلك ما رواه أبو الزنـاد عبد الله بن ذكوان القـرشى قال: (رأيت عمر بن عبد العـزيز جمع الفقهاء، فجمعوا لـه أشياء من السنن، فإذا جاء الشىء الذى ليس العمل عليه، قال: هذه زيادة ليس العمل عليها)[٤].

لقد بذل عـمر بن عبـد العزيز جهـده فى المحافظة على السنة ـ مع قصـر مدة خلافتـه، فقد طلب من أبى بكر بن حزم جمع الحـديث، وأبو بكر هذا من أعلام عصـره، قال فيه مـالك بن أنس: (ما رأيت مثل أبى بـكر بـن حـزم أعظم مروءة ولا أتم حالاً.. ولى المدينة والقضاء والموسم[٥])، وعنه قوله: (لم يكن عندنا أحد بالمدينة عنده من علم الـقضـاء ما كـان عند أبى بكر[٦]). وكان قـد طلب منه أن يكتب إليه حديث عمرة بنت عبد الرحـمن وهى خالته، نشأت فى حجر عائشة، وكانت من أثبت التابعين فى حديث عائشة رضى الله عنها[٧].

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ جـ١.

(٢) المحدث الفاصل ص ١٥٣.

(٣) سنن الدارمى ص ١١٤ جـ١، وانظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٣٤ جـ٢.

(٤) قبول الأخبار ص ٣٠، وتـوفى أبـو الزناد سنة (١٣١هـ)، ومـن ذلك أيـضًا (مـا روى عـن يعقوب ابن عبـد الرحمن عن أبيه، قـال: حضرت عبـيد الله بن عبد الله، دخل عـلى عمر بن عبـد العزيز، فأجلس قومًا يكتبون ما يقول، فلما أراد أن يقوم، قـال له عمر: (صنعنا شيئًا) قال: وما هو يا ابن عبد العزيز؟ قـال: (كتبنا مـا قلت) قال: وأين هو؟ قـال: فجىء به فخـرق. تقييـد العلم ص ٤٥) ربما كره الكتابة عنه لأنه ممن يحب الاعتماد على الحفظ كما سنذكر بعد قليل.

(٥، ٦) تهذيب التهذيب ص ٣٩ جـ١٢.

(٧) انظر: المرجع السابق ص ٤٣٨ جـ١٢، وقال سفيان بن عـيينة: أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة، القاسم ابن محمد، وعروة بن الزبير، وعمرة بنت الرحمن. انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ٤٥.

وأما القاسم بن محمد بن أبى بكر (٣٧ ـ ١٠٧هـ) الذى ذكر فى بعض الروايات فهو أحد الفقهاء السبعة فى المدينة، وعالم أهل زمانه، تلقى علمه عن عمته عائشة رضى الله عنها، وعائشة أم المؤمنين معروفة بعلمها وتعمقها فى السنة، وهى غنية عن التعريف.

وأما ابن شهاب أحد الذين شاركوا فى الجمع والكتابة فهو أحد أعلام ذلك العصر، كان قد كتب السنن وما جاء عن الصحابة أثناء طلبه العلم[١]. وكان ذا مكانة رفيعة، فقد روى عن أبى الزناد أنه قال: (كنا نكتب الحلال والحرام وكان ابن شهاب يكتب كل ما سمع، فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس)[٢].

وإذا كانت المنية قد اخترمت الخليفة الراشد الخامس قبل أن يرى الكتب التى جمعها أبو بكر ـ كما يذكر ذلك بعض العلماء[٣] ـ فإنه لم تفته أولى ثمار جهوده، التى حققها ابن شهاب الزهرى الذى يقول: (أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنين، فكتبناها دفترًا دفترًا، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[٤])، وعلى هذا يحمل ما قاله المؤرخون والعلماء: (أول من دون العلم ابن شهاب)[٥] وله أن يفخر بعلمه هذا، ويقول: (لم يدون هذا العلم أحد قبل تدوينى)[٦].

وقد اعتبر علماء الحديث تدوين عمر بن عبد العزيز هذا أول تدوين للحديث ورددوا فى كتبهم هذه العبارة: (وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع على رأس المائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز)[٧] أو نحوها.

---

(١) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٢٦ جـ١ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٥٦: أ.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٣ جـ١، وانظر: ترجمة ابن شهاب فى الفصل الثانى من الباب الخامس من هذا الكتاب.

(٣) انظر: قواعد التحديث ص ٤٧.

(٤) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ جـ١.

(٥) المرجع السابق ص ٧٦ جـ١ وحلية الأولياء ص ٣٦٣ جـ٣.

(٦) الرسالة المستطرفة ص ٤.

(٧) تدريب الراوى ص ٤٠ وقواعد التحديث ص ٤٦، ونحو هذا فى توجيه النظر ص ٦ وإرشاد السارى ص ١٤ جـ١.

ويفهم من هذا أن التدوين الرسمى كان فى عهد عمر بن بن عبد العزيز، أما تقييد الحديث وحفظه فى الصحف والرقاع والعظام فقد مارسه الصحابة فى عهد رسول الله ﷺ، ولم ينقطع تقييد الحديث بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، بل لقى جنبًا إلى جنب مع الحفظ حتى قيض للحديث من يودعه المدونات الكبرى.

وسيتبين لنا بعد قليل أن والد عمر بن عبد العزيز قد سبق ابنه فى طلب تدوين الحديث. وأن أهل الحديث لم يمسكوا طوال القرن الأول عن تقييد حديث رسول الله ﷺ منتظرين سماح الخليفة وأمره، وقد ذكرنا شيئًا من هذا فيما عرضناه من أخبار عن سماح الصحابة والتابعين بالكتابة وكتاباتهم لأنفسهم.

وهكذا كانت نهاية القرن الأول الهجرى وبداية القرن الثانى خاتمة حاسمة لما كان من كراهة الكتابة وإباحتها، فدونت السنة فى صحف وكراريس ودفاتر، وكثرت الصحف فى أيدى طلاب الحديث.

وقد يظن الباحث أن كراهة الكتابة قد ولت، وانهزمت أمام إباحتها، ولم تعد هذه الإباحة مجرد رأى، بل انتقل الرأى إلى التطبيق فعلاً، وتبنت الدولة الإشراف على الكتابة، ولكنا لا نلبث أن نسمع أصوات من يكره الكتابة تعلو من جديد، وكان بعض هؤلاء من نفس جيل التابعين الثانى (أواسطهم) ومن صغارهم، فقد راعهم أن يروا الحديث فى كراريس ودفاتر، وأن يعتمد طلاب الحديث والعلماء على الكتب، ويهملوا الحفظ، فتمسكوا بالآثار التى لا تبيح الكتابة، وأبوا أن ينكب أهل الحديث على دفاترهم، ويجعلوها خزائن علمهم، ولم يعجبهم أن يخالف سبيل الصحابة فى الحفظ والاعتماد على الذاكرة، وحق لهم أن يكرهوا الاتكال على الكتب، لأن فى الاتكال على المكتوب وحده إضعافًا للذاكرة، وانصرافًا عن العمل به.

وها هو ذا الضحاك بن مزاحم الذى أباح الكتابة سابقًا، والذى أملى مناسك الحج حين زال خوفه من أسباب الكراهة ـ هاهو ذا يقول: (يأتى على الناس زمان

تكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا ينظر فيه)[1] وفى رواية عنه (يأتى على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشعش عليه العبكبوت، لا ينتفع بما فيه وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث)[2] لقد تصور عاقبة هذا الإقبال على الكتابة وجعل الحديث فى دفاتر وكراريس، فأعلن إنكاره مدويًا: (لا تتخذوا للحديث كراريس ككراريس المصاحف)[3].

ويمكننا أن نحمل قول الزهرى: (كنا نكره كتاب العلم، حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا ألا نمنعه أحدًا من المسلمين)[4] ـ على ما بيناه، لأننا نعرف أن الإمام الزهرى كان يكتب الحديث وهو فى دور طلب العلم، وكان يشجع أصحابه على الكتابة؛ حتى إنه كان يكتب فى ظهر نعله خشية ـ أن يفوته الحديث[5] وفعلاً عندما طلب منه الخليفة هشام بن عبد الملك أن يكتب لبنيه خرج وأملى على الناس الحديث[6] وقال: (استكتبنى الملوك، فأكتبتهم، فاستحييت الله إذ كتبها الملوك ألا أكتبها لغيرهم)[7].

وقد سبق أن بينت أن حرصه على تنقيح السنة كان عاملاً كبيرًا فى تدوينه الحديث هو وبعض معاصريه.

وكان سعيد بن عبد العزيز يفخر بحفظه ويقول: (ما كتبت حديثًا قط)[8]، ونرى الإمام الأوزاعى بعد أن كان يملى على طلابه ويصحح لهم ما يكتبونه عنه ليجيزهم بروايته[9]، ينفر من الاعتماد على الكتاب، ويتشاءم مما سيؤول إليه الحفظ فلا يسره الميل عن طريق السلف الذين كانوا يتلقون الحديث من أفواه العلماء،

(١) جامع بيان العلم ص ٦٥ جـ١.
(٢) جامع بيان العلم ص ١٢٩ جـ٢.
(٣) تقييد العلم ص ٤٧.
(٤) المرجع السابق ص ١٠٧، وطبقات ابن سعد ص ٣٥ قسم ٢ جـ٢.
(٥) انظر: تقييد العلم ص ١٠٧.
(٦) انظر: حلية الأولياء ص ٣٦٣ جـ٣.
(٧) جامع بيان العلم وفضله ص ٧٧ جـ١.
(٨) سنن الدارمى ص ١٢١ جـ١، وتذكرة الحفاظ ص ٢٠٣ جـ١ وتوفى سعيد بن عبد العزيز سنة (١٦٧هـ).
(٩) انظر: الكفاية ص ٣٢٢.

فيقول: (كان هذا العلم شيئًا شريفًا إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه[1]، ويتذاكرونه فلما صار فى الكتب ذهب نوره، وصار إليه غير أهله)[2].

ونرى بعض من كره الكتابة فى هذا العصر يعتمد عليها فى حفظ الحديث ثم يمحو ما كتبه بعد أن يحفظه، وقد فعل غير واحد من السلف أمثال سفيان الثورى (ـ ١٦١هـ)، وحماد بن سلمة (ـ ١٦٧هـ)[3] وغيرهما. ويروى فى هذا عن خالد الحذاء (ـ ١٤١هـ): (ما كتبت شيئًا قط إلا حديثًا طويلاً، فإذا حفظته محوته)[4].

وكان كثير من التابعين يمحون كتبهم قبل وفاتهم، أو يوصون بكتبهم إلى من يثقون به، ليفيد منها، خشية أن تقع فى غير مواضعها، فقد أوصى أبو قلابة بكتبه إلى أيوب[5]، كما أوصى شعبة بن الحجاج ابنه بغسل كتبه بعد موته.

إن محاولة هؤلاء المانعين من الكتابة، لم تخفف من نشاط الكتابة، ولم تقف أمام هذا الجيل الذى نشأ عليها، فقد كان تيار إباحة الكتابة أقوى بكثير من تيار كراهتها.

ونرى أيوب السختيانى (ـ ١٣١هـ) يرد على من يعيب تقييد الحديث، فيقول: (يعيبون علينا الكتاب!! ثم يتلو «عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ»)[7].

وما لبث التياران أن توحدا وألجت الحاجة القاهرة إلى الكتابة على هؤلاء المانعين بأن يحاربوا التيار العام، ويعتمدوا فى حفظ السنة على الحفظ والكتابة معًا.

(١، ٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٦٨ جـ١ وفيه (يتلاقونه) وما أثبتناه أصوب ويتفق مع ما ورد فى المصادر الأخرى. وسنن الدارمى ص ١٢١ جـ١ وتقييد العلم ص ٦٤، توفى الأوزاعى سنة (١٥٧هـ).

(٣) انظر: تقييد العلم ص ٥٨ ـ ٦٠.

(٤) المرجع السابق ص ٥٩.

(٥) انظر: طبقات ابن سعد ص ١٣٥ جـ٧ وتذكرة الحفاظ ص ٨٨ جـ١، وتوفى أبو قلابة سنة (١٠٤هـ).

(٦) انظر: تقييد العلم ص ٦٢، ولد شعبة بن الحجاج سنة (٨٢هـ) وتوفى سنة (١٦٥هـ).

(٧) تقييد العلم ص ١١٠ وسنن الدارمى ص ١٢١ جـ١، وجامع بيان العلم ٧٣ جـ١.

يقول ابن الصلاح: (ثم إنه زال ذلك الخلاف وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك، وإباحته، ولولا تدوينه فى الكتب لدرس فى الأعصر الآخرة)[1].

ويقول الرامهرمزى: (والحديث لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة، والتعهد والتحفظ، والمذاكرة والسؤال، والفحص عن الناقلين، والتفقه بما نقلوه، وإنما كره الكتاب من كره فى الصدر الأول، لقرب العهد وتقارب الإسناد، ولئلا يعتمده الكاتب فيهمله، ويرغب عن تحفظه، والعمل به، فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنقلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون، فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى..)[2].

ولم تكن ظاهرة الاختلاف هذه ناشئة عن انقسام العلماء إلى حزبين أو مدرستين، إحداهما تبيح الكتابة والأخرى تمنعها، بل نشأت من تلك الأسباب التى بيناها، فإذا ما زالت أسباب المنع أباح العلماء الكتابة، وإذا قامت عاد أكثرهم فمنع الكتابة، وإذا ما خيف من الاتكال على الكتاب وإهمال الحفظ علت أصوات المنع ثانية تطالب بالاعتماد على الذاكرة، حتى أجمعت الأمة على الكتابة التى أصبحت من ضروريات الحديث لا يمكن الاستغناء عنها.

خامسًا: المصنفون الأوائل فى الحديث

لم يلبث هذا التيار من النشاط العلمى وكتابة الحديث أن طالع العالم بمدونات حديثية مختلفة على يدى أبناء النصف الأول من القرن الثانى الهجرى، وقد ظهرت تلك المصنفات والكتب فى أوقات متقاربة، وفى مناطق مختلفة من الدولة الإسلامية، فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة فى الصحف والكراريس، أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب، وكانت هذه المصنفات تشتمل على السنن وما يتعلق بها، وكان بعضها يسمى مصنفًا وبعضها يسمى جامعًا أو مجموعًا وغير ذلك. وقد اختلف فى أول من صنف وبوب، فقيل عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصرى (ـ ١٥٠هـ) بمكة، ومالك بن أنس

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ١٧١.

(٢) المحدث الفاصل ص ٧١.

(٩٣ـ ١٧٩هـ) أو محمد بن إسحاق (ـ ١٥١هـ) بالمدينة المنورة، وصنف بها محمد بن عبد الرحمن بن أبى ذئب (٨٠ـ ١٥٨هـ) موطأ أكبر من موطأ مالك، والربيع بن صبيح (ـ ١٦٠هـ) أو سعيد بن أبى عروبة (ـ ١٥٦هـ) أو حماد ابن سلمة (ـ ١٦٧هـ) بالبصرة، وسفيان الثورى (٩٧ـ ١٦١هـ) بالكوفة، ومعمر ابن راشد (٩٥ـ ١٥٣هـ) باليمن، والإمام عبد الرحمن بن عمرو والأوزاعى (٨٨ـ ١٥٧هـ) بالشام، وعبد الله بن المبارك (١١٨ـ ١٨١هـ) بخراسان، وهشيم ابن بشير (١٠٤ـ ١٨٣هـ) بواسط[١]، وجرير بن عبد الحميد (١١٠ـ ١٨٨هـ) بالرى، وعبد الله بن وهب (١٢٥ـ ١٩٧هـ) بمصر[٢]، ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم فى النسيج على منوالهم، وقد كان هذا التصنيف بالنسبة إلى جمع الأبواب وضمها إلى بعضها فى مؤلف أو جامع، وأما جمع حديث إلى مثله فى باب واحد، فقد سبق إليه التابعى الجليل عامر الشعبى (١٩ـ ١٠٣هـ)، الذى يروى عنه أنه قال: هذا باب من الطلاق جسيم، إذا اعتَدّت المرأة ورثت[٣]، وساق فيه أحاديث[٤].

وكان معظم هذه المصنفات، والمجاميع يضم الحديث الشريف وفتاوى الصحابة والتابعين، كما يتجلى لنا هذا فى موطأ الإمام مالك بن أنس[٥]، ثم رأى بعضهم

---

(١) انظر: تاريخ بغداد ص ٥٨ جـ١٤، وتذكرة الحفاظ ص ٢٢٩ جـ١.

(٢) انظر: المحدث الفاصل ص ١٥٥: ب وما بعدها، وتدريب الراوى ص ٤٠ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ١٨٦: ب ـ ١٨٧: أ ومقدمة فتح البارى ص ٤ ومنهج ذوى النظر ص ٥١٨.

(٣) المحدث الفاصل ص ١٥٥ والجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع نسخة الإسكندرية ص ١٨٨: أ، ومقدمة فتح البارى، وتدريب الراوى ص ٤٠.

(٤) تدريب الراوى ص ٤٠، ومنهج ذوى النظر ص ١٨، وهناك أخبار كثيرة، تثبت أن جمع الأبواب بعضها إلى بعض كان بعد جمع الأحاديث فى باب واحد. من ذلك ما رواه خالد بن دينار قال: قلت لأبى العالية: أعطنى كتابك. قال: ماكتبت إلا باب الصلاة، وباب الطلاق. وقال يحيى بن سعيد كان سفيان صاحب أبواب. وقال سفيان الثورى كم من أحاديث طنانات لا يؤبه لها قد أخرجنا عن صاحب هذا القبر (ابن جريج) فى أبواب. انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع نسخة الإسكندرية ص ١٨٨: أ - ١٨٨: ب وعن عاصم الأحول (ـ ١٤٢هـ) قال: (قرأت على الشعبى أحاديث الفقه فأجازها لى) انظر: الكفاية ص ٢٦٤.

(٥) فى موطأ مالك ثلاثة آلاف مسألة وسبعمائة حديث انظر: الرسالة المستطرفة ص ١١.

أن تفرد أحاديث النبى ﷺ فى مؤلفات خاصة، فألفت المسانيد، وهى كتب تضم أحاديث رسول الله ﷺ بأسانيدها خالية من فتاوى الصحابة والتابعين، تجمع فيها أحاديث كل صحابى - ولو كانت فى مواضيع مختلفة - تحت اسم مسند فلان ومسند فلان. وهكذا.

وأول من ألف المسانيد أبو داود سليمان بن الجارود الطيالسى (١٣٣ - ٢٠٤هـ)[١] وتبعه بعض من عاصره من أتباع التابعى وأتباعهم، فصنف أسد ابن موسى الأموى (- ٢١٢هـ)، وعبيد الله بن موسى العبسى (- ٢١٣هـ)، ومسدد البصرى (- ٢٢٨هـ) ونعيم بن حماد الخزاعى المصرى (- ٢٢٨هـ)، واقتفى الأئمة آثارهم، كأحمد بن حنبل (١٦٤ - ٢٤١هـ)، وإسحاق بن راهوية (١٦١ - ٢٣٨هـ) وعثمان بن أبى شيبة (١٥٦ - ٢٣٩هـ) وغيرهم[٢].

ويعتبر مسند الإمام أحمد بن حنبل - وهو من أتباع التابعين - أو فى تلك المسانيد وأوسعها.

جمع هؤلاء الحديث ودونوه بأسانيده، واجتنبوا الأحاديث الموضوعة، وذكروا طرقًا كثيرة لكل حديث، يتمكن بها جهابذة هذا العلم وصيارفته من معرفة الصحيح من الضعيف، والقوى من المعلول، مما لا يتيسر لكل طالب علم، فرأى بعض الأئمة أن يصنفوا فى الحديث الصحيح فقط، فصنفوا كتبهم على الأبواب، واقتصروا فيها على الحديث الصحيح، وظهرت الكتب الستة فى العصر، عصر أتباع أتباع التابعين، وكان أول من صنف ذلك الإمام أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخارى (١٩٤ - ٢٥٦هـ)، ثم الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى (٢٠٤ - ٢٦١هـ)، وأبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى (٢٠٢ - ٢٧٥هـ)، وأبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (- ٢٧٩هـ)، وأحمد بن شعيب الخراسانى النسائى (٢١٥ - ٣٠٣هـ)، ثم ابن ماجه، وهو عبد الله بن محمد

(١) انظر: الرسالة المستطرفة ص ٤٦، وقد طبع هذا المسند طبعة جيدة فى حيدرآباد بالهند سنة ١٣٢١.
(٢) انظر: منهج ذوى النظر ص ١٨، وتدريب الراوى ص ٤٠، والرسالة المستطرفة ص ٣٦ - ٤٧.

ابن يزيد بن عبد الله بن ماجه القزوينى (٢٠٧ ـ ٢٧٣هـ)[١]. وقد خدمت هذه الكتب بالشرح والتهذيب والاختصار والاستخراج عليها من العلماء الذين جاءوا بعدهم.

أهم نتائج هذا الفصل:

١ ـ لم يكن السبب فى عدم تدوين السنة رسمياً فى عهده ﷺ جهل المسلمين آنذاك بالكتابة والقراءة، فكان فيهم القارئون الكاتبون، الذين دونوا التنزيل الحكيم، بل كان ذلك لأسباب أخرى، أهمها الخوف من التباس القرآن بالسنة، وكيلا ينشغل المسلمون بكتابة السنة عن كتابة القرآن ودراسته وحفظه.

٢ ـ ليس هناك تعارض بين ما روى عن الرسول ﷺ من أباحة الكتابة وكراهتها، فكرة الكتابة لمن لا يحسنها أو لمن يستطيع الحفظ، وأباحها لمن لا يستطيع الحفظ، وإن كان بعضهم يرى أن النهى كان أول الإسلام حتى لا يلتبس القرآن بالسنة، ثمن انتهينا إلى إباحة الرسول ﷺ كتابة السنة مطلقًا، وليست هذه الأخبار من وضع مذاهب متخاصمة متضادة.

٣ ـ ما ورد عن الصحابة والتابعين وأتباعهم من كراهة للكتابة أو إباحتها لم يكن ناشئًا من قيام حزبين أحدهما يبيح الكتابة والآخر يكرهها، بل أباحوا الكتابة حين زالت أسباب المنع، وكرهوا الكتابة حين وجدت أسباب منعها وكراهتها، كخشية التباس القرآن بالسنة، أو الانشغال بالسنة عن القرآن، أو خوف مضاهاة الكتاب الكريم بكراريس الحديث وكتبه. وقد ثبتت أخبار الكراهة عن بعض من أباحوا الكتابة، كما ثبتت أخبار الإباحة عن بعض من كرهوا الكتابة، وكانت غايتهم جميعًا واحدة، وهى المحافظة على القرآن والسنة: أن يلتبس أحدهما بالآخر، ثم انعقد الإجماع على إباحة الكتابة حين زالت أسباب كراهتها.

---

(١) ليس من موضوعنا أن نتكلم على هذه الكتب الستة الآن، ولكن لابد من أن نشير إلى أن صحيح الإمام البخارى وصحيح مسلم هما فى الدرجة الأولى من هذه الكتب، ثم تأتى السنن الأربعة فى رتبة تليها، وسنن ابن ماجه دونها جميعًا لأن فيها ما أنكره وضعفه بعض العلماء، ولعلماء الحديث فى ذلك أقوال يضيق بنا المقام لذكرها. انظر: تدريب الراوى ص ٣٩، ٤٠، ٤٧، ٤٩، وسبل السلام ص ١١، ١٢ جـ١.

٤ـ خشى عمر بن عبد العزيز اندراس السنة، وتسرب الوضع إليها، فأمر بجمعها على أيدى كبار علماء التابعين، وأمر المسؤولين فى مختلف أقاليم الدولة الإسلامية بالاعتناء بالحديث الشريف، وتشجيع العلماء على عقد حلقات دراسته فى المساجد، وشارك عمر بن العزيز نفسه العلماء فى ذلك، ووزع قبل وفاته ما كتبه الإمام الزهرى، فلعمر الفضل الكبير فى تحميل الدولة مسؤولية حفظ السنة رسمياً.

وأما التدوين الفردى فقد وقع فى عهد الرسول ﷺ، وفى عهد الصحابة والتابعين، ولم تبق السنة مهملة طيلة القرن الأول إلى عهد عمر بن عبد العزيز، بل تم حفظها فى الصدور جنبًا إلى جنب مع حفظها فى الصحف والكراريس.

٥ـ فى مطلع القرن الهجرى الثانى، تحول عمل العلماء من جمع الحديث وتقييده، إلى تصنيفه على الأبواب وضم هذه الأبواب إلى بعضها فى مصنف أو جامع، فلم يكن مطلع هذا القرن مبدأ لتدوين السنة وتقييدها، بل كان مبدأ للتصنيف على الأبواب، وقد ظهرت هذه المصنفات فى أوقات متقاربة فى مختلف مراكز الإشعاع العلمى بالدولة الإسلامية.

ثم ظهرت المسانيد فالصحاح، وبهذا يكون تدوين الحديث، قد مر بمراحل منتظمة حتى انتهى إلينا فى كتب الصحاح والمسانيد.

***

الفصل الثانى

ما دون فى صدر الإسلام...

من الثابت أن بعض الصحابة كانوا قد كتبوا عن رسول الله ﷺ بعض أحاديثه بإذن خاص منه كعبد الله بن عمرو، والأنصارى الذى كان لا يحفظ الحديث، ثم كتب غيرهم جانبًا من حديثه بعد إذنه ﷺ بالكتابة إذنًا عاما كما سبق، ولدينا أخبار كثيرة عما كتبه الصحابة من صحف.

غير أنا لا نعرف كل ما تتضمنه هذه الصحف، لأن بعض الصحابة والتابعين كانوا يحرقون ما لديهم من الصحف أو يغسلونها قبل وفاتهم، وكان بعضهم يوصى بما عنده لمن يثق به، كانوا يفعلون هذا خشية أن تؤول تلك الصحف إلى غير أهل العلم[1]. ونحن لا نشك فى أن كثيرًا من صحف الصحابة قد كتب فى عهده عليه الصلاة والسلام، وأن أكثر ما كتب تناقله الناس فى حياة أصحابه وبعد وفاتهم عن طريق أبنائهم وأحفادهم أو ذويهم. روى ابن عبد البر بسنده عن أبى جعفر محمد بن على قال: وجد فى قائم سيف رسول الله ﷺ صحيفة فيها مكتوب: «ملعون من سرق تخوم الأرض، ملعون من تولى غير مواليه. أو قال معلون من جحد نعمة من أنعم عليه[2]».

وقد اشتهر فى عهد رسول الله ﷺ كتاب خطير الشأن هو ذلك الكتاب الذى أمر رسول الله ﷺ كتابه بتدوينه فى السنة الأولى للهجرة، وقد نصت فيه حقوق المسلمين المهاجرين والأنصار وعرب يثرب وموادعة يهودها، وتكررت فيه عبارة (أهل الصحيفة) خمس مرات، وجاء فى مقدمته: (هذا كتاب محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم

(١) من أخبار محو الكتب وحرقها ما فعله أبو بكر رضى الله عنه بما كان عنده من الصحف انظر: تذكرة الحفاظ ص٥ جـ١، وانظر: أخبار غيره فى تقييد العلم ص٥٩- ٦٣ وفى كتاب العلم لزهير بن حرب ص١٩٢، وفى الجامع لأخلاق الراوى ص٤٤: أ.

(٢) جامع بيان العلم وفضله ص٧١ جـ١.

وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة دون الناس. . . إلخ[1]) هذا دليل على أن هذا الدستور أو الميثاق للدولة الإسلامية الفتية، كان مدونًا فى صحيفة اشتهر أمرها وتواتر نقلها.

وربما أرسل رسول الله ﷺ بعض الأحكام مكتوبة إلى عماله ومن هذا ما يرويه ابن أبى ليلى عن عبد الله بن عكيم، قال قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ: «**أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب**[2]».

وكتب أبو بكر لأنس بن مالك كتابًا فيه الصدقات التى فرضها رسول الله ﷺ، وفى رواية أن الكتاب كان مهورًا بخاتم رسول الله ﷺ[3].

وروى نافع عن ابن عمر أنه وجد فى قائم سيف عمر بن الخطاب رضى الله عنه صحيفة فيها صدقة السوائم[4]، وقد تكون هذه النسخة هى التى ورثها سالم ابن عبد الله بن عمر، وقرأها عنده ابن شهاب الزهرى[5]. ويؤكد لنا هذا ما روى عن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى قال: (لما استخلف عمر بن العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب. . . ووجد عند آل عمر كتاب عمر فى الصدقات، مثل كتاب رسول الله ﷺ، قال: فنسخا له[6]).

---

(١) سيرة ابن هشام ص١١٩ جـ٢، والأموال ص٢٠٢، وانظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى ص١٥.

(٢) معرفة علوم الحديث ص٨٦، وقال الحاكم: هذا منسوخ بحديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بشاة ميتة فقال: «هلا استمعتم بجلدها؟ قالوا يا رسول الله إنها ميتة، فقال إنما حرم أكلها» انظر: معرفة علوم الحديث ص٨٦، وانظر: أخبار أهل الرسوخ فى الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث ص٢٧.

(٣) رد الدارمى على بشر المريسى ص١٣١، وذكر الإمام أحمد هذا الكتاب فى مسنده ص١٨٣، ١٨٤ حديث ٧٢ جـ١.

(٤) انظر: الكفاية ص٣٥٣، ٣٥٤، وانظر: توجيه النظر ص٣٤٨.

(٥) انظر: الأموال ص٣٦٠ ورد الدارمى على بشر ص١٣١.

(٦) الأموال ص٣٥٨، ٣٥٩ ويقال كان عند عمر بن الخطاب نسخ العهود والمواثيق ملء، صندوق إلا أنها احترقت يوم الجماجم (٨٢هـ) وما بقى منها قضت عليه ظروف الزمن وغارة التتار انظر: الوثائق السياسية، المقدمة: ى وقد بقيت بعض كتبه ﷺ حتى القرن التاسع الهجرى ككتابه بإقطاع تميم الدارمى، انظر: مسالك الأبصار ص١٧٣-١٧٥.

وقد اشتهرت صحيفة أمير المؤمنين على بن أبى طالب التى كان يعلقها فى سيفه، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وحرم المدينة، ولا يقتل مسلم بكافر[١].

وروى عن ابن الحنفية: محمد بن على بن أبى طالب (ـ٨١هـ) قال: أرسلنى أبى قال: (خذ هذا الكتاب، فاذهب به إلى عثمان. فإن فيه أمر النبى ﷺ بالصدقة[٢]).

وروى عن مسعر عن معن قال: (أخرج لى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود كتابا، وحلف لى أنه بخط أبيه بيده [٣]).

وكان عند سعد بن عبادة الأنصارى (ـ١٥هـ) كتاب أو كتب فيها طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ، وقد روى ابن هذا الصحابى من كتب أبيه بعض أعمال الرسول ﷺ[٤]. ويروى الإمام البخارى أن هذه الصحيفة كانت نسخة من صحيفة عبد الله بن أبى أوفى، الذى كان يكتب الأحاديث بيده، وكان الناس يقرءون عليه ما جمعه بخطه[٥].

وكان عند أبى رافع مولى رسول الله ﷺ (ـ٣٥هـ)[٦] كتاب فيه استفتاح الصلاة، دفعه إلى أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث (ـ٩٤هـ)[٧] أحد الفقهاء السبعة.

---

(١) انظر: مسند الإمام أحمد ص٣٥، ٤٤، ١٢١، ١٣١ جـ٢ وفتح البارى ص٨٣ جـ٧ ورد الدارمى على بشر ص١٣٠.

(٢) رد الدارمى على بشر ص١٣٠، وفتح البارى ص٢٣ جـ٧.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ص٧٢ جـ١.

(٤) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص٧٢ جـ١، ونظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص١١٨ وانظر: صحيفة همام بن منبه ص١٦ نقلا عن الترمذى.

(٥) انظر: علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص١٣ وهامشها وفيه (عبد الله بن أوفي) وهو خطأ مطبعى والصواب (عبد الله بن أبى أوفى) انظر: صحيح البخارى بشرح السندى ص١٤٣ جـ٢ باب الصبر عند القتال. وعبد الله بن أبى أوفى صحابى شهد الحديبية، وعمر بعد النبى ﷺ، توفى سنة (٨٧هـ) وهو آخر من توفى بالكوفة من الصحابة. انظر: تقريب التهذيب ص٤٠٢ جـ١.

(٦) وقيل وفاته بعد قتل عثمان وقيل مات فى خلافة على رضى الله عنهما.

(٧) انظر: الكفاية ص٣٣٠.

وكان عند أسماء بنت عميس (ـ٣٨هـ) كتاب جمعت فيه بعض أحاديثه ﷺ[١].

عن محمد بن سعيد قال: لما مات محمد بن مسلمة الأنصارى (ـ٤٢هـ)[٢] وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا: (بسم الله الرحمن الرحيم، سمعت النبى ﷺ يقول: **إن لربكم فى بقية دهركم نفحات، فتعرضوا له**...[٣]).

وكتبت سبيعة الأسلمية إلى عبد الله بن عتبة تروى عن النبى ﷺ أنه أمرها بالنكاح بعد قليل من وفاة زوجها بعد ما وضعت[٤].

وكتب رسول الله ﷺ كتابا لوائل بن حجر (ـ٥٠هـ) لقومه فى حضرموت، فيه الخطوط الكبرى للإسلام، وبعض أنصبة الزكاة، وحد الزنا، وتحريم الخمر، وكل مسكر حرام[٥].

وولى رسول الله ﷺ عمرو بن حزم (ـ٥٣هـ) على اليمن، وأعطاه كتابا فيه الفرائض والسنن والديات وغير ذلك[٦].

وكان أبو هريرة (ـ٥٩هـ) يحتفظ بكتب فيها أحاديث عن رسول الله ﷺ.

روى الفضيل بن حسن بن عمرو بن أمية الضمرى عن أبيه أنه قال: تحدثت عند أبى هريرة بحديث فأنكره، فقلت إنى قد سمعته منك، فقال: إن كنت سمعته منى فهو مكتوب عندى، فأخذ بيدى إلى بيته، فأرانا كتبًا كثيرة من حديث رسول الله ﷺ، فوجد ذاك الحديث، فقال: قد أخبرتك أنى إن كنت حدثتك به

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص١١٨.

(٢) كان محمد بن مسلمة من أفضل الصحابة وهو أحد الثلاثة الذين قتلوا كعب بن الأشرف واستخلفه ﷺ على المدينة فى بعض غزواته، اعتزل الفتن ولم يشهد الجمل ولا صفين وتوفى وهو ابن (٧٧) سنة. انظر: تهذيب التهذيب ص٤٥٤ جـ٩.

(٣) المحدث الفاصل ١١٢.

(٤) الكفاية ص٣٣٧، وسبيعة هذه هى بنت الحارث زوجة سعد بن خولة انظر: تهذيب التهذيب ص٤٣٤ جـ١٢.

(٥) انظر: الإصابة ص٣١٢ جـ٦ وانظر: تفصيل ذلك فى المصباح المضىء ص١١٢: أ ـ ١١٢: ب.

(٦) انظر: الإصابة ص٢٩٣ جـ٤ ترجمة (٥٨٠٥). وقد أخرج الكتاب أبو داود والنسائى وابن حبان والدارمى وغير واحد كما ذكر ابن حجر فى ترجمته وانظر: رد الدارمى على بشر ص١٣١ وانظر: فتوح البلدان ص٨١ وقارن بالأموال ص٣٥٨، ٣٥٩.

فهو مكتوب عندى[1]. وكان بشير بن نهيك قد قرأ عليه الكتاب الذى كتبه عنه قبل أن يفارقه[2].

وجمع سمرة بن جندب (ـ ٦٠هـ) أحاديث كثيرة فى نسخة رواها عنه ابنه سليمان[3]، ويحتمل أن تكون هذه النسخة هى الرسالة التى كتبها سمرة إلى بنيه، وقال فيها محمد بن سيرين (فى رسالة سمرة إلى بنيه علم كثير[4]).

الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص (٧ق هـ ـ٦٥هـ):

كان رسول الله ﷺ قد سمح لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما بكتابة الحديث، لأنه كان كاتبا محسنا، فكتب عنه الكثير، واشتهرت صحيفة ابن عمرو رضى الله عنه (بالصحيفة الصادقة) كما أراد كاتبها أن يسميها، لأنه كتبها عن رسول الله ﷺ، فهى أصدق ما يروى عنه، وقد رآها مجاهد بن جبر (٢١ـ ١٠٤هـ) عند عبد الله بن عمرو، فذهب ليتناولها، فقال له: (مه يا غلام بنى مخروم) قال مجاهد: قلت: ما كتبت شيئا. قال: (هذه الصادقة فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ وليس بينى وبينه فيها أحد[5])، وكانت هذه الصحيفة عزيزة جداً على ابن عمرو حتى قال (ما يرغبنى فى الحياة إلا الصادقة والوهط[6])، وربما

---

(١) انظر: جامع بيان العلم ص٧٤ جـ١. قال ابن عبد البر بعد هذا الخبر (هذا خلاف ما تقدم فى أول الباب عن أبى هريرة أنه لم يكتب، وأن عبد الله بن عمرو كتب وحديثه بذلك أصح فى الثقل من هذا لأنه أثبت إسنادًا عند أهل الحديث) وقال ابن حجر أقوى من ذلك أنه لا يلزم من وجود الحديث مكتوبًا عنده أن يكون بخطه، وقد ثبت أنه لم يكن يكتب، فتعين أن المكتوب عنده بغير خطه. انظر: فتح البارى ص٢١٨ جـ١ أقول وصحة خبر عدم كتابة أبى هريرة لا تنفى صحة وجود الكتب عنده، وقد يكون ممن يعرف القراءة دون الكتابة، فيكلف من يكتب له.

(٢) طبقات ابن سعد ١٦٢ جـ٧ والعلم لزهير بن حرب: ١٩٣. ب والجامع لأخلاق الراوى ص١٣٧: ب. والمحدث الفاصل ص١٢٨: أ.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص١٩٨ جـ٤.

(٤) المرجع السابق ٢٣٦ جـ٤ أخرج البخارى أول رسالة سمرة بن جندب إلى بنيه فى ترجمة محمد ابن إبراهيم بن خبيب وفيها: (بسم الله الرحمن الرحيم، من سمرة بن جندب إلى بنيه: «إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة من المكتوبة ما قل أو كثر ونجعلها وترًا.) التاريخ الكبير ص٢٦ ترجمة ٢٩ قسم١ جـ١.

(٥) المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٢: ب جـ٤ وطبقات ابن سعد ص١٨٩ قسم ١ جـ٧ ونحوه فى تقييد العلم ص٨٤.

(٦) سنن الدارمى ص١٢٧ جـ١ والوهط أرض لعمرو بن العاص تصدق بها، كان يقوم بها، المصدر نفسه.

كان يحفظها فى صندوق له حلق[1]، خشية عليها من الضياع، وقد حفظ هذه الصحيفة أهله من بعده، ويرجح أن حفيده عمرو بن شعيب كان يحدث منها[2].

وتضم صحيفة عبد الله بن عمرو ألف حديث كما يقول ابن الأثير [3].

إلا أن إحصاء أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده لا يبلغ خمسمائة حديث[4]، وإذا لم تصلنا الصحيفة الصادقة كما كتبها ابن عمرو بخطه، فقد نقل إلينا الإمام أحمد محتواها فى مسنده[5]، كما ضمت كتب السنن الأخرى جانبًا كبيرًا منها [6].

ولهذه الصحيفة أهمية علمية عظيمة، لأنها وثيقة علمية تاريخية، تثبت كتابة الحديث النبوى الشريف، بين يدى رسول الله ﷺ وبإذنه[7].

---

(١) انظر: مسند الامام أحمد ص ١٧١ حديث ٦٦٤٥ جـ١٠، وكتاب العلم للمقدسى ص٣٠ بإسناد صحيح.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب ص٤٨، ٤٩ جـ ٨.

(٣) انظر: أسد الغابة ص٢٣٣ جـ٣.

(٤) انظر: مسند عبد الله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص٦٧١ حيث أحصى السيد محمد سيف الدين عليش أحاديث الصادقة، فكان منها:

٢٠٢ حديثًا من أصل ٦٣٢ حديثًا رواها الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٨١ حديثًا من أصل ٢٣٢ حديثًا رواها أبو داود فى مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٥٣ حديثًا من أصل ١٢٨حديثًا رواها النسائى فى مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٦٥ حديثًا من أصل ١١٧ حديثًا رواها ابن ماجه فى مسنده عن عبد الله بن عمرو.

و ٣٥ حديثًا من أصل ٨٩ حديثًا رواها الترمذى فى مسنده عن عبد الله بن عمرو.

فعدد أحاديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وهى أحاديث الصادقة كما هو المرجح بلغ (٤٣٦) حديثًا بما فيه المكرر عند الإمام أحمد وفى السنن الأربعة، وقد يكون حكم ابن الأثير مبنيا على أن جميع ما روى عن ابن عمرو هو الصادقة وليس ببعيد.

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر: الجزء التاسع من الصفحة ٢٣٥ الحديث ٦٤٧٧ والجزء العاشر بكامله وكذلك الحادى عشر والجزء الثانى عشر إلى الصفحة ٥٠ الحديث ٧١٠٣.

(٦) انظر: مسند عبد الله بن عمرو وصحيفته الصادقة ص٦٧١.

(٧) ورد طعن فى الصحيفة الصادقة من بعض أهل العلم كالمغيرة بن مقسم الضبى الذى قال: (كانت لعبد الله ابن عمرو صحيفة تسمى الصادقة ما تسرنى أنها لى بفلسين) انظر: تأويل مختلف الحديث ص٩٣، وفى ميزان الاعتدال ص٢٩٠ جـ٢ (ما يسرنى أن صحيفة عبد الله بن عمرو عندى بتمرتين أو بفلسين). إذا صحت هذه الرواية عن المغيرة فلا يجوز حملها على ظاهرها ولا قبولها هكذا مقتضبة لأنه ذكر ذلك فى معرض الكلام على الروايات الضعيفة، فإذا ضعف نسخة ابن عمرو قائما ضعفها لأنها انتقلت (وجادة) فهو لا يقبل أن تكون عنده هذه الصحيفة بالطريق الذى حملها الرواة، لأن الوجادة أضعف طرق =

وكان عبد الله يملى الحديث على تلاميذه،[1] وقد نقل عنه تلميذه حسين ابن شفى بن ماتع الأصبحى فى مصر كتابين، أحدهما فيه (قضى رسول الله ﷺ فى كذا، وقال رسول الله ﷺ كذا، والآخر ما يكون من الأحداث إلى يوم القيامة)[2]. ونحن هنا لم نتعرض إلا للصحيفة الصادقة، فقد كان عند ابن عمرو كتب كثيرة عن أهل الكتاب أصابها يوم اليرموك فى زاملتين[3]، وقد ادعى بشر المريسى أن (عبد الله بن عمرو كان يرويهما للناس عن النبى ﷺ، وكان يقال له لا تحدثنا عن الزاملتين)، وهذه الدعوى باطلة، فقد ثبت أن ابن عمرو كان أمينا فى نقله، وروايته، لا يحيل ما روى عن النبى على أهل الكتاب، كما لا يحيل ما روى عن أهل الكتاب على النبى ﷺ[4].

= التحمل، فقد كانوا لا يحبون أن ينقلوا الأخبار من الصحف بل عن الشيوخ، ولا يجوز أن يحمل قول المغيرة على غير هذا الوجه، لأنه ثبت أن عبد الله قد كتبها بين يدى النبى ﷺ. ويمكننا للاستئناس أن نراجع أقوال العلماء فى راوى هذه الصحيفة فى ميزان الاعتدال ص٢٨٩ جـ٢ وفى تهذيب التهذيب ص٤٨-٥٥ جـ٨ وفى فتح المغيث ص٦٨، ٦٩ جـ٤ حيث يتبين لنا قيمة الصحيفة وثقة راويها عمرو ابن شعيب. قال الإمام تقى الدين بن تيمية: (وأما أئمة الإسلام وجمهور العلماء فيحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، إذا صح النقل إليه مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة ونحوهما، ومثل الشافعى وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية.. قالوا: (وإذا كانت نسخة مكتوبة من عهد النبى ﷺ كان هذا أوكد لها وأدل على صحتها) ولهذا كان فى نسخة عمرو بن شعيب من الأحاديث الفقهية التى فيها مقدرات ما احتاج إليه عامة علماء الإسلام) انظر: قواعد التحديث ص٣٦، ٣٧.

(١) انظر: تاريخ دمشق ص٤٩ جـ٦. (٢) خطط المقريزى ص٣٣٢، ٣٣٣ جـ٢.

(٣) الزاملة هى البعير الذى يحمل عليه الطعام والمتاع. وقيل هى الدابة التى يحمل عليها الطعام والمتاع من الإبل وغيرها. انظر: لسان العرب مادة (زمل) ص٣٢٩ جـ١٣.

(٤) انظر: رد الدارمى على بشر ص١٣٦، وقد ذكر محمود أبو رية صاحب كتاب أضواء على السنة المحمدية فى الصفحة ١٦٢ هامش (٣) أن عبد الله بن عمرو (كان قد أصاب زاملتين من كتب أهل الكتاب، وكان يرويها للناس (عن النبى ﷺ) فتجنب الأخذ عنه كثير من أئمة التابعين، وكان يقال له: لا تحدثنا عن الزاملتين ص ١٦٦ جـ١ فتح البارى) انتهى ما نقلناه عن أضواء على السنة المحمدية ومن العجيب أن يسمع إنسان مثل هذا الخبر ويصدقه لأن الصحابة رضوان الله عليهم، كانوا أصدق الناس لسانا، وأنقى الأمة قلوبا، وأخلص البرية للرسول ﷺ، فلا يعقل أن يكذب أمثال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما على رسول الله فيعزو إليه ما سمعه من أهل الكتاب. فهرعت إلى فتح البارى وإذا به - شهد الله - خاليا من عبارة أبى رية، فليس فى قول ابن حجر (عن النبى) إنما زادها الكاتب من عنده!!!

فهل تكذيب الصحابة، والافتراء عليهم، والانتحال على العلماء، أمثال ابن حجر وغيره من الأمانة العلمية؟؟ وقد ثبت لنا سوء نية أبى رية فى مواضع كثيرة يظهر بعضها فى بحثنا عن أبى هريرة.

ويكفى ابن عمرو فخـرًا أنه كان أول من دون الحديث بين يدى رسول الله ﷺ بإذنه وفى مختلف أحواله فى الغضب والرضا.

كتب ابن عباس (٣ ق هـ ـ ٦٨هـ).

اشتهر ابن عباس بطلب العلم ودأبه عليه، وكان بعد وفاة رسول الله ﷺ يسأل الصحـابة ويكتب عنهم، وكـان رسول الله ﷺ قـد دعا له فـقال: **(اللهم ألهـمه الحكمة وعلمـه التأويل**[١])، وعندما توفى ابن عـباس ظهرت كتبـه، وكانت حمل بعير[٢].

ويروى أن عبد الله بن عمر (١٠ ق هـ ـ ٧٣هـ) كان إذا خرج إلى السوق نظر فى كتبه وقد أكد الراوى أن كتبه هذه كانت فى الحديث[٣].

صحيفة جابر بن عبد الله الأنصارى (١٦ق هـ ـ ٧٨هـ):

يحتمل أن تـكون هذه الصحيفة غـير المنسك الصغيـر الذى أورده مسلم فى كتـاب الحج[٤]، وقـد ذكرها ابن سـعد فى ترجـمـة مجـاهد، وكان يحـدث عنها[٥]، وكان التابعى الجليل قتـادة بن دعامة السدوسى (ـ ١١٨هـ) يرفع من قيمة هـذه الصحيفة ويقول (لأنا بصـحيفة جابر بن عبـد الله أحفظ منى لسورة البقرة[٦]).

وفى رواية: (إنما يحدث قتادة عن صـحيفة سليمان اليـشكرى، وكان له كتاب عن جابر بن عبد الله[٧]). ويحتمل أن يكون سليمـان اليشكرى قد نقل عن جابر

---

(١) الكفاية ص ٢١٣، وراجع طلبـه للعلم فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص١٤: أ، وفى تقـييد العلم ص٩١، ٩٢، ١٠٩ وانظر ترجمته فى الفصل الأول من الباب الخامس من هذا الكتاب.

(٢) عن موسى بن عقبـة (ـ١٤١) صاحب المغازى قال: (وضع عندنا ابن كريب مولى ابن عبـاس حمل بعير من كتب ابن عباس) انظر: طبقات ابن سعد ص٢١٦ جـ٥.

(٣) الجامع لأخلاق الراوى وآداب السـامع ص١٠٠: أ ويروى أن ابن عمر كره كتـابة الحديث، قـال سـعـيد ابن جبيـر (٤٥ـ٩٥هـ) كنت أسأل ابن عمر فى صحـيفة ولو علم بها كانت الفـيصل بينى وبينه. انظر: طبقات ابن سعد ص١٧٩ جـ٦، وربما كان ابن عمر يكتب لنفسه أو سمح بذلك آخرًا.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص٤١ جـ١.

(٥) طبقات ابن سعد ص٤٣٣ جـ٥.

(٦) طبقات ابن سعد ص١ـ٢ قسم ٢ جـ٧.

(٧) القياس لابن قيم الجوزية ص١٠٨.

صحيفته، وهو أحد تلاميذه، يروى ابن حجر أن سليمان جالس جابرا، وكتب عنه صحيفة[1]، ولعل قتادة كان قد روى صحيفة جابر بن عبد الله عن سليمان اليشكرى، فإن أم سليمان قدمت بكتاب سليمان، فقرئ على ثابت وقتادة وأبى بشر. . . فرووها كلها، وأما ثابت فروى منها حديثًا واحدًا[2]، فصحيفة جابر كانت مشهورة، وكتاب سليمان اليشكرى عنه كان مشهورًا أيضًا، ويدعم هذا روايات كثيرة، منها ما روى عن شعبة أنه كان يرى أن أحاديث أبى سفيان طلحة بن نافع عن جابر إنما هو كتاب سليمان اليشكرى[3] وكانت لجابر حلقة فى المسجد النبوى يملى فيها على طلابه الحديث، فكتب منهم كثير أمثال وهب ابن منبه (ـ١١٤هـ[4])، وقد روى أبو الزبير وأبو سفيان والشعبى عن جابر وهم قد سمعوا منه وأكثر ما رووه من الصحيفة[5].

ويروى عن عروة بن الزبير (٢٢ـ٩٣هـ) قوله: (كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أنى فديته بما لى وولدى وأنى لم أمحه[6]) وربما كتب غيرها ثم احترقت يوم الحرة فحزن عليها، فكان يقول: (وددت لو أن عندى كتبى بأهلى ومالى[7]).

---

(١) انظر: تهذيب التهذيب ص ٢١٤ جـ٤ وانظر: تقييد العلم ص ١٠٨ حول كتابته.

(٢) انظر: الكفاية ص ٣٥٤.

(٣) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٤، ١٤٥.

(٤) انظر: صحيفة همام بن منبه ص١٤. وكان كثير من التابعين يذهبون إلى جابر رضى الله عنه يكتبون عنه الحديث، من هذا ما روى عن عبد الله بن محمد بن عقيل قال: كنت أختلف إلى جابر بن عبد الله أنا ومحمد وأبو جعفر. معنا ألواح نكتب فيها: انظر: تقييد العلم ص١٠٤، وأبو جعفر هو محمد بن على (ـ١١٤هـ) ومحمد هو ابن الحنفية. كما كتب عنه أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس (ـ١٢٦هـ) كثيراً انظر: تهذيب التهذيب ص٤٤٠، ٤٤١ جـ٩.

(٥) انظر: تهذيب التهذيب ص٢١٤ جـ٤، وعرضت على الشعبى صحيفة كتبت عن جابر فقال سمعت هذا كله عن جابر رضى الله عنه المحدث الفاصل ص٩١: ب.

(٦) تقييد العلم ص٦٠ ونحوه فى المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٤: ب جـ٤.

(٧) جامع بيان العلم وفضله ص٧١ جـ١، وفى رواية ابن سعد أنها كتب (فقه) انظر: طبقات ابن سعد ص١٣٣ جـ٥.

وكان عند خالد بن معدان الكلاعى الحمصى (ـ١٠٤هـ) مصحف له أزرار وعرا أودع فيه علمه[١]. وكان عند بحير بن سعيد نسخة عن خالد بن معدان[٢].

وأوصى أبو قلابة (عبد الله بن زيد الجرمى ـ ١٠٤هـ) بكتبه لأيوب السختيانى (٦٨ـ١٣١هـ) فجيء بها عدل راحلة[٣]، ودفع أيوب كراءها بضعة عشر درهما[٤].

وقال الأعمش قال الحسن البصرى (٢١-١١٠هـ) إن لنا كتبا نتعاهدها[٥]. وكان عند محمد الباقر بن على بن الحسين (٥٦ -١١٤هـ) كتب كثيرة سمع بعضها منه ابنه جعفر الصادق. وقرأ بعضها[٦].

وكان عند مكحول الشامى كتب[٧] وعند الحكم بن عتبة[٨]، وكان عند بكير ابن عبد الله بن الأشج (ـ ١١٧هـ) عالم المدينة كتب انتقلت إلى ابنه مخرمة ابن بكير[٩].

وكان عند قيس بن سعد المكى (ـ ١١٧هـ) كتاب انتقل إلى حماد ابن سلمة (ـ ١٦٧هـ)[١٠].

ومما لا شك فيه أن العلماء فى مطلع القرن الهجرى الثانى صنفوا كثيرًا من الكتب، وكثرت الكتب بين أيديهم، حتى بلغت كتب الإمام الزهرى حداً كبيرًا،

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ ص٨٨ جـ١.

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ ص١٦٦ جـ١.

(٣) انظر: طبقات ابن سعد ص٢١٦ جـ٥ وتذكرة الحفاظ ص٨٨ جـ١.

(٤) انظر: طبقات ابن سعد ص٢١٧ قسم ٢ جـ٧.

(٥) انظر: المحدث الفاصل نسخة دمشق ص٣، ب جـ٤ كما كانت له كتب حديث وفقه وكان بعض أصحابه يأخذها فينسخها ثم يردها. انظر: طبقات ابن سعد ص١٧ قسم٢ جـ٧.

(٦) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٠٤ جـ٢، ومحمد الباقر أحد الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية. انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٥٠ جـ٩ وشذرات الذهب ص ١٤٩ جـ١.

(٧) الفهرست لابن النديم ص ٣١٨.

(٨) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ١٢٠.

(٩) انظر: تهذيب التهذيب ص ٧٠، ٧١ جـ١٠، وعلوم الحديث ١١٠.

(١٠) تذكرة الحفاظ ص ١٩٠ جـ١.

نقلت بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (٨٨ ـ ١٢٦هـ) من خزائنه على الدواب[١].

وقبل أن نتكلم عن شيوع التدوين وانتشاره فى مطلع القرن الهجرى الثانى وعن كتب ومصنفات العلماء آنذاك، لابد لنا من أن نتكلم عن صحيفة همام بن منبه لما لها من أهمية تاريخية فى تدوين الحديث.

الصحيفة الصحيحة لهمام بن منبه (٤٠ ـ ١٣١هـ)[٢].

لقى همام بن منبه أحد أعلام التابعى الصحابى الجليل أبا هريرة، وكتب عنه كثيرًا من حديث رسول الله ﷺ. وجمعه فى صحيفة أو صحف أطلق عليها اسم (الصحيفة الصحيحة)[٣]، وربما سماها بالصحيحة على مثال (الصحيفة الصادقة) لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، وحق له أن يسميها بالصحيحة، لأنه كتبها عن صحابى خالط رسول الله ﷺ أربع سنين، وروى عنه الكثير.

وقد وصلتنا هذه الصحيفة كاملة، كما رواها ودونها همام عن أبى هريرة، فقد عثر على هذه الصحيفة الدكتور المحقق محمد حميد الله فى مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين[٤].

وتزداد ثقتنا بصحيفة همام حينما نعلم أن الإمام أحمد قد نقلها بتمامها فى مسنده، كما نقل الإمام البخارى عددًا كثيرًا من أحاديثها فى صحيحه فى أبواب شتى[٥].

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام للذهبى ص ١٤١ جـ٥.

(٢) ذكر الدكتور صبحى الصالح وفاة همام سنة (١٠١هـ) اعتمادًا منه على طبقات ابن سعد ص ٣٩٦ جـ٥ لأنها أقدم المصادر ثم قال فى هامش الصفحة ٢٢ من كتابه علوم الحديث ومصطلحه: (وعند ابن حجر والنووى وسواهما توفى همام سنة ١٣١هـ ولعله تصحيف لقول ابن سعد (مات سنة إحدى أو اثنتين ومئة) وانظر التصحيحات الملحقة بصحيفة همام ص ٢). إلا أنى أرجح وفاته سنة (١٣١هـ) لأن سفيان ابن عيينة قال: كنت أتوقع قدوم همام عشر سنين، وسفيان بن عيينة ولد سنة (١٠٧هـ) فلا يعقل أن يقول هذا بعد وفاة همام بسنوات، ثم إن معمرًا كان قد أدركه وقد كبر وسقط حاجباه على عينيه، فهذا الوصف ينطبق على من سنه أكثر من ستين سنة وهى السن التى ذكرتها وقالها غير ابن سعد. انظر: تهذيب التهذيب ص ٦٧ جـ١١. حيث ذكر إدراك معمر بن راشد لهمام.

(٣) أقدم تدوين فى الحديث النبوى صحيفة همام بن منبه ص ٢٠ كشف الظنون.

(٤) راجع صحيفة همام ص ٢١ـ ٢٣ حيث وصف الدكتور حميد الله المخطوطتين.

(٥) انظر: المرجع السابق ص ٢٠.

ولهذه الصحيفة أهمية تاريخية فى تدوين الحديث الشريف، لأنها حجة قاطعة، ودليل ساطع على أن الحديث النبوى كان قد دون فى عصر مبكر (وتصحح الخطأ الشائع: أن الحديث لم يدون إلا فى أوائل القرن الهجرى الثانى)[1]، ذلك لأن همامًا لقى أبا هريرة ـ ولا شك أنه كتب عنه ـ قبل وفاته وقد توفى أبو هريرة سنة (٥٩) للهجرة فمعنى ذلك أن هذه الوثيقة العلمية قد دونت قبل هذه السنة، أى فى منتصف القرن الهجرى الأول، وقد ثبت لنا أن عبد الله بن عمرو دون فى عهد الرسول صحيفته الصادقة، وها نحن أولاء يثبت لنا تدوين صحيفة همام فى منتصف القرن الهجرى الأول، مما يدل على أن العلماء كانوا قد باشروا التدوين فعلاً قبل أمر عمر ابن عبد العزيز رحمه الله وكان من الأولى أن نذكر هذه الصحيفة بين كتب أبى هريرة، لأنها إملاؤه لهمام، إلا أننا فضلنا الكلام عنها هنا لاشتهارها باسمه، وقد رواها عنه تلميذه معمر بن راشد ثم عبد الرزاق عن معمر ثم هلم جرا[2].

وتضم صحيفة همام هذه (١٣٨) حديثًا وقد ذكر ابن حجر أن هماما سمع من أبى هريرة نحو أربعين ومائة حديث بإسناد واحد[3]، وهذا يزيدنا ثقة بهذه الصحيفة، لاتفاق عدد ما جاء فيها من الأحاديث وما ذكره العلماء.

* * *

وشاع التدوين فى النصف الأول من القرن الهجرى الثانى بين العلماء، حتى أصبح من النادر ألا يرى لأحدهم تصنيفًا أو جامعًا فيه أبواب فى الحديث.

وقد سبق أن ذكرت أول من صنف فى مختلف البلاد الإسلامية.

ومما شارك فى التصنيف أوجد عنده كتب فى تلك الحقبة يحيى بن أبى كثير (ـ١٢٩هـ)[4]، معاصر الإمام الزهرى. وكان عند محمد بن سوقة (ـ١٣٥هـ)[5]

---

(١) علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ٢٢.

(٢) انظر: صحيفة همام بن منبه ص ٢٠.

(٣) تهذيب التهذيب ٦٧ جـ١١.

(٤) انظر: معرفة علوم الحديث ص ١١٠ والمحدث الفاصل ص ٩٤ وفى رواية أنه توفى سنة (١٣٢هـ) فى اليمامة انظر: ص ١٥٦ منه.

(٥) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ٧٥ وتهذيب التهذيب ص ٢١٠ جـ٩ ويفهم من المرجع الأول أن لمنصور ابن المعتمر كتابًا أيضًا.

كتاب، وكان عند زيد بن أسلم (١٣٦هـ) كتاب فى التفسير[١] لعل فيه كثيرًا من حديث رسول الله ﷺ. وكان عند موسى بن عقبة (ـ١٤١هـ)[٢] أحاديث لنافع مولى ابن عمر مكتوبة فى صحيفة. وكان للأشعث بن عبد الملك الحمرانى (ـ١٤٢هـ)[٣] كتاب انتقل إلى سليمان صاحب البصرى. وقد كتب عقيل بن خالد ابن عقيل (ـ١٤٢هـ)[٤] حديثًا كثيرًا عن الزهرى، وكان أعلم الناس بحديثه. وكان ليحيى بن سعيد الأنصارى (ـ١٤٣هـ[٥]) كتاب انتقل إلى حماد بن زيد.

وكتب عوف بن أبى جميلة العبدى (ـ١٤٦هـ)[٦] أطراف الحديث عن الحسن البصرى عن النبى ﷺ، وكانت هذه الأطراف بعد ذلك عند يحيى بن سعيد القطان (١٢٠ ـ ١٩٨هـ)[٧]. وكان عند جعفر الصادق بن محمد الباقر (٨٠ ـ ١٤٨هـ)[٨] رسائل وأحاديث ونسخ، وكان من ثقات المحدثين، وكان ليونس ابن يزيد بن أبى النجاد (ـ١٥٢هـ) كتاب شهد له ابن المبارك بالصحة[٩]، وكان لعبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة المسعودى (ـ١٦٠هـ) كتب أتى بها شعبة من بغداد[١٠]، وكان لزائده بن قدامة (ـ١٦١هـ) كتب عرضها على سفيان الثورى[١١]، وقد كان زائدة نظيرًا لشعبة بن الحجاج[١٢] وكان لسفيان الثورى (٩٧ـ١٦١هـ) كتب كثيره منها فى الحديث (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير[١٣]). وقال ابن المبارك: إبراهيم بن طهمان (ـ١٦٣هـ) والسكرى يعنى أبا حمزة (ـ١٦٧هـ) صحيحا الكتب[١٤].

---

(١) انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٢٤ جـ١ وتهذيب التهذيب ص ٣٩٥ جـ٣.

(٢) انظر: الكفاية ص ٢٦٦.

(٣) انظر: المحدث الفاصل ص ١٣٦: ب.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٥٢ جـ١.

(٥) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ١٧٨.

(٦) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٦٧ جـ٨.

(٧) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٣٦.

(٨) انظر: تهذيب التهذيب ص ١٠٤ جـ٢.

(٩) انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٥٠ جـ١١، وتقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٢. وكان يونس يكتب عن الزهرى. انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٠٥.

(١٠) انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ١٤٥.

(١١) المرجع السابق ص ٨٠.

(١٢) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٠٠ جـ١.

(١٣) انظر: الفهرست لابن النديم ص ٣١٥.

(١٤) تقدمة الجرح والتعديل ص ٢٧٠.

وكان لشعبة بن الحجاج (ـ١٦٠هـ) كتاب الغرائب فى الحديث[١]، وكان لعبد العزيز بن عبد الله الماجشون (ـ١٦٤هـ) كتب مصنفة رواها عنه ابن وهب[٢]، وكان لعبد الله بن عبد الله بن أويس (ـ١٦٩هـ)ـ ابن عم مالك وصهره على أخته ـكتب انتهت إلى ابنه إسماعيل[٣]. وأوصى سليمان بن بلال (ـ١٧٢هـ) بكتبه إلى عبد العزيز بن أبى حازم[٤]، ومن الجدير بالذكر أنه كان لعلى بن لهيعة (ـ١٧٤هـ) محدث الديار المصرية كتب كثيرة، احترقت سنة (١٦٩هـ) وكانت كتبه صحيحة[٥]، ولابن لهيعة صحيفة فى الحديث تعتبر من أقدم مجموعات الحديث، وهى موجودة ضمن مجموعة أوراق البردى (بهيدلبرج)[٦]، وكان لليث بن سعد (٩٤ـ١٧٥هـ) شيخ الديار المصرية وعالمها تصانيف كثيرة[٧].

ولدينا كثير من أخبار المصنفات والمصنفين إلا أن المقام يضيق بذكرها، ويكفى دليلا على كثرة هذه المصنفات فى نهاية القرآن الثانى، أن على بن عبد الله المدينى (١٦١ـ٢٣٤هـ) صنف فى مختلف أبواب الحديث ورجاله وغريبه وشاذه وعلله نيفا ومائة مصنف، ذكر منها محمد بن صالح الهاشمى نيفا وخمسة وعشرين مصنفا، وكل كتاب فى عدة أجزاء بلغ بعضها ثلاثين جزءاً[٨].

---

(١) انظر: الرسالة المستطرفة ص ٨٥.

(٢) انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٤٤ جـ١ قال ابن وهب: (حججت سنة (١٤٨هـ) وصائح يصيح لا يفتح الباب ـإلى الخليفةـ إلا لمالك وعبد العزيز بن أبى سلمة) وكان صاحب سنة، وقد كتب عنه أهل بغداد. نفس المرجع.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص ٢٨٠ جـ٥.

(؟) انظر: الإصابة ص ١٩٩ جـ٧.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٤٧ جـ١.

(٥) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ جـ١، قال الإمام أحمد: ما كان محدث مصر إلا ابن لهيعة. ويعود عدم احتجاج البخارى ومسلم به إلا فى المتابعات لاحتراق كتبه. انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٢٠ جـ١.

(٦) نظرة: عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص ١١٨.

(٧) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٢٠٩ جـ١.

(٨) انظر: الجامع لأخلاق الراوى وآداب السامع ص ١٩٤، وليس فى هذا مبالغة، لأن بعض الأجزاء لا تتجاوز وريقات. كما لا يستبعد هذا بالنسبة لابن المدينى إمام عصره الذى كان يجله الإمام أحمد ويحترمه لسمو مكانته وسعة علمه. انظر: تقدمة الجرح والتعديل ص ٣١٩.

هكذا ساهم علماء المسلمين فى حفظ الحديث فى صدورهم وفى كتبهم، وصدق على بن المدينى حين قال: نظرت فإذا الإسناد يدور على ستة، فأهل المدينة ابن شهاب (ـ١٢٤هـ)، ولأهل مكة عمرو بن دينار (٤٦ـ١٢٦هـ)[١]، ولأهل البصرة قتادة بن دعامة السدوسى (ـ١٧١هـ)، ويحيى بن أبى كثير (ـ ١٢٩)[٢]، ولأهل الكوفة أبو إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبيعى (٢٣ ـ ١٢٧هـ)[٣]، وسليمان ابن مهران الأعمش (٦١ ـ ١٤٨هـ). قال على: ثم صار علم هؤلاء الستة إلى أصحاب الأصناف[٤].

****

(١) كان محدثا فقيهًا قال فيه شعبة: ما رأيت أثبت فى الحديث منه. انظر: تاريخ الإسلام للذهبى ص ١١٤ جـ٥ وتهذيب التهذيب ص ٣٠ جـ٨.

(٢) ذكر الرامهرمزى وفاته فى اليمامة سنة (١٣٢هـ). وما أثبته عن تذكرة الحفاظ ص ١٢١ جـ١، وتهذيب التهذيب ص ٢٦٨ جـ١١.

(٣) وهو من أعلام التابعين الثقات كان إمام الكوفة وشيخها فى عصره أدرك عليا رضى الله عنه، ويروى أنه سمع من (٣٨) صحابيًا، انظر: تاريخ الإسلام للذهبى ص ١٦٦ جـ٥، وتهذيب التهذيب ص ٦٣ جـ ٨.

(٤) انظر: المحدث الفاصل ص ١٥٦: أـ ب وتقدمة الجرح والتعديل ص ٣٤، ١٢٩.

الفصل الثالث

آراء فى التدوين..

١ ـ رأى الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ):

قال الإمام محمد رشيد رضا: (لعل أول من كتب الحديث وغيره من التابعين فى القرن الأول، وجعل ما كتبه مصنفًا مجموعًا هو خالد بن معدان الحمصى، روى عنه أنه لقى سبعين صحابياً قال فى تذكرة الحفاظ وقال بحير: ما رأيت أحدًا ألزم للعلم منه، وكان علمه فى مصحف له أزرار وعرا) ثم قال: فخالد بن معدان جمع علمه فى مصنف واحد جعل له وقاية لها أزرار وعرا تمسكها لئلا يقع شىء من تلك الصحف، وكان ذلك فى القرن الأول، فإنه مات سنة ١٠٣هـ أو سنة ١٠٤هـ، ولكن المشهور أن أول من كتب الحديث ابن شهاب الزهرى القرشى، ولعل سبب ذلك أخذ أمراء بنى أمية عنه[1].).

بعد أن رأينا موقف العلماء من الكتابة خلال القرن الأول الهجرى وفى النصف الأول من القرن الثانى، وبعد أن وجدنا أدلة علمية قاطعة تثبت وقوع التدوين فى عهد رسول الله ﷺ وفى عصر الصحابة والتابعين ـ بعد هذا لا يمكننا أن نقبل رأى الأستاذ الإمام، وذلك من ناحيتين:

الأولى: إذا اعتبرنا التدوين الشخصى الخاص بكل عالم ـ فإن كثيرين من الصحابة والتابعين سبقوا خالدًا فى هذا المضمار، وحافظوا على ما كتبوه، فابن عمرو حفظ صحفه فى صندوق له حلق، وغيره فى كراريس ودفاتر، كهمام ابن منبه وابن شهاب، فمجرد وجود علم خالد بن معدان فى مصحف له أزرار لا يكفى لأن يكون أول من دوّن الحديث فى عصره.

والناحية الثانية: إذا اعتبرنا التدوين الرسمى للحديث استجابة لرغبة عمر ابن عبد العزيز فقد سبق خالدًا إلى التدوين أبو بكر بن حزم وابن شهاب الزهرى،

(١) مجلة المنار ص ٧٥٤جـ١٠.

وقد ثبت أن ابن شهاب كتب لعمر الحديث فى دفاتر وزعت على كل أرض له عليها سلطان، فخالد لم يكن أول من صنف، سواء أكان هذا التصنيف خاصاً أم رسمياً. فهناك من سبقه فى جمع الحديث، ويمكننا أن نعتبر صحف خالد من أولى الصحف التى ضمت علمه فى ذلك القرن.

وإذا كان المشهور أن ابن شهاب الزهرى أول من كتب الحديث ـ فإن هذا محمول على تنفيذه أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، لا لأن أمراء بنى أمية أخذوا عنه، لأن أخذ الأمراء عنه لا يؤثر فى الأدلة الأخرى التى تثبت استجابته لأمر الخليفة وتدوينه الحديث فى دفاتر. وقد أسلفنا أنه كان قد كتب كثيراً من حديث رسول الله ﷺ، فى أثناء طلبه العلم. وهذا يدل على أسبقية ابن شهاب على غيره فى التدوين ومع هذا فهناك من دون قبله ـ بشكل غير رسمى ـ وحفظ علمه فى صحف واعتنى بصحفه وحرص عليها من الضياع. فقد ثبت لدينا مما سبق أن كثيراً قبل ابن شهاب وقبل خالد بن معدان كتبوا الحديث وحفظوه فى كل ما تيسر لديهم من وسائل، رغبة منهم فى حفظ حديث رسول الله ﷺ من الضياع أو التحريف.

٢ ـ رأى الشيعة فى تدوين الحديث:

أ ـ قال المرجع الدينى الأكبر السيد حسن الصدر (١٢٧٢ ـ ١٣٥٤هـ):

(وقد وهم الحافظ الجلال السيوطى فى كتابه تدريب الراوى، حيث زعم أن ابتداء تدوين الحديث وقع فى رأس المائة. قال: وأما ابتداء تدوين الحديث فإنه وقع فى رأس المائة فى خلافة عمر بن عبد العزيز بأمره، ففى صحيح البخارى فى أبواب العلم: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم... قال فى فتح البارى، يستفاد من هذا ابتداء تدوين الحديث النبوى، ثم أفاد أن أول من دونه بأمر عمر بن عبد العزيز ابن شهاب انتهى ما فى تدريب الراوى. قلت «السيد حسن الصدر»: كانت خلافة عمر بن عبد العزيز سنتين وخمسة أشهر مبدؤها عاشر صفر سنة ثمان أو تسع وتسعين ومات سنة إحدى ومائة لخمس أو لست مضين وقيل لعشر بقين من رجب، ولم يؤرخ زمان أمره ولا نقل ناقل امتثال أمره بتدوين

الحديث فى زمانه، والذى ذكره الحافظ ابن حجر من باب الحدس والاعتبار، لا عن نقل العمل بأمره بالعيان، ولو كان له عند أهل العلم بالحديث أثر بالعيان لما نصوا أن الإفراد لحديث رسول الله ﷺ كان على رأس المائتين، كما اعترف به شيخ الإسلام وغيره... قال «ابن حجر»: إلى أن رأى بعض الأئمة أن تفرد أحاديث النبى ﷺ خاصة، وذلك فى رأس المائتين وعدد جماعة... وكذلك الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ نص أن أول زمن التصنيف وتدوين السنن وتأليف الفروع - بعد انقراض دولة بنى أمية وتحول الدولة إلى بنى العباس... ولا يقاس بالذهبى غيره فى الخبرة بالتواريخ فى أمثال هذه الأمور، فلم يذكر ما ذكره السيوطى، بل كل من كتب فى الأوائل من علماء السنة لم يذكره. اللهم إلا أن يقال باستبعاد عدم الأخذ بقول مثل عمر بن عبد العزيز فلعله جمع بعده فلا يكون الحكم بجمعه فى رأس المائة من القول السديد المحقق، عصمنا الله تعالى من التسرع فى القول[1].

أقول إن ما ذكره السيوطى ليس وهما بل حقيقة علمية، كما تبين لنا من البحث.

وأما قصر مدة خلافة عمر بن عبد العزيز، وعدم تأريخ زمن أمره فإنه لا ينافى استجابة العلماء لأمر الخليفة. وأما أنه لم ينقل هذا ناقل فهذا حكم يناقض الدليل، فقد كثر الناقلون، ونص ابن عبد البر على أن ابن شهاب امتثل لأمر الخليفة وكتب الحديث فى دفاتر، وبعث الخليفة إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا[2]، ولم يكن ما ذكره ابن حجر من باب الحدس والتخمين، ثم إن ما ذكره علماء الحديث من أن إفراد تدوين حديث رسول الله ﷺ كان على رأس المائتين - لا ينافى قط تدوينه استجابة لأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز، ونحن لا نشك فى أن بعض المدونات الأولى، فى عصر رسول الله ﷺ وفى عصر الصحابة كانت خالية من فتاوى الصحابة، وأقوى دليل على هذا الصحيفة الصادقة، والصحيفة

(١) تأسيس علوم الشيعة ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) انظر: جامع بيان العلم وفضله ص ٧٦ جـ ١.

الصحيحة، وإن كان بعض المصنفين قد كتب عمل الصحابة، وفتاواهم إلى جانب الحديث، فهذا لا ينافى كونهم دوّنوا الحديث على رأس المائة الأولى وقبلها.

واستشهاده بما ذكره الحافظ الذهبى فى تذكرة الحفاظ لا يجدى نفعًا، لأن الحافظ الذهبى لخص الحالة فى القرن الأول، ولم يدرس التدوين دراسة موضوعية تفصيلية، ومع هذا نراه يذكر فى تراجم من صنف من العلماء أنهم أول من صنفوا فى بلادهم. وليس من المفروض على الذهبى أن يفصل فى التدوين لأن تذكرته فى رجال الحديث، لا فى علم الحديث ومصطلحه.

وأما أن أحدًا من الأوائل الذين كتبوا فى الحديث وعلومه ـ لم يذكر ما ذكره الجلال السيوطى، فهذا مردود بما كشف عنه بحثنا، فقد ذكر ذلك الرامهرمزى، وبين سبب كراهة من كره الكتابة فى الصدر الأول، وجمع بين أحاديث السماح بالكتابة والنهى عنها. وإذا كان الرامهرمزى لم ينقل إلينا النص كالسيوطى حرفياً فقد ذكر ما يفهم منه أن بعض العلماء كانوا قد دوّنوا فى القرن الأول،[1] كما بين اهتمام عمر بن عبد العزيز بنشر السنة والمحافظة عليها[2]، ووضع الخطيب البغدادى كتابه (تقييد العلم) لعرض سير التدوين فى العصر الأول، وبين كثيراً مما خفى على الناس، وأثبت أن بعض طلاب العلم وأهله قد مارسوا التدوين فى عهد رسول الله ﷺ وبعده.

وروى أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ـ ٢٢٤هـ) بسنده عن محمد ابن عبد الرحمن الأنصارى، قال: (لما استخلف عمر بن عبد العزيز أرسل إلى المدينة يلتمس كتاب رسول الله ﷺ فى الصدقات وكتاب عمر بن الخطاب. . . . فنسخا له[3])، فما أظن بعد هذا أن يدعى إنسان أن أمر عمر بن عبد العزيز لم ينفذ أو لم يؤخذ به، فما ذهب إليه علماء الحديث من أن ابتداء تدوين الحديث وقع فى رأس المائة الأولى ليس من باب الحدس والتسرع بالقول. ويحمل قولهم هذا

---

(١) انظر: المحدث الفاصل ص ٧١: أ- ٧١: ب.

(٢) انظر: المرجع السابق ص ١٥٣: أ.

(٣) الأموال ص ٣٥٨، ٣٥٩.

على التدوين الرسمى الذى تبنته الدولة، أما التدوين الشخصى والفردى فكان منذ عهد رسول الله ﷺ.

بعدما ذكره السيد حسن الصدر قال: (إذا عرفت هذا فاعلم أن الشيعة أول من تقدم فى جمع الآثار والأخبار، فى عصر خلفاء النبى المختار عليه وعليهم الصلاة والسلام، اقتدوا بإمامهم أمير المؤمنين عليه السلام). ثم ذكر كتابًا لعلى رضى الله عنه كان عظيمًا مدرجًا، وذكر صحيفته المعلقة بسيفه، ثم ذكر كتابًا لأبى رافع مولى رسول الله ﷺ سماه «كتاب السنن والأحكام والقضايا» وقد توفى أبو رافع فى أول خلافة على رضى الله عنه، قال السيد حسن الصدر: (وأول خلافة على أمير المؤمنين سنة خمس وثلاثين من الهجرة، فلا أقدم من أبى رافع فى التأليف بالضرورة[1]).

أقول: إذا صح هذا الخبر فإن أبا رافع يكون ممن دون فى عصر الصحابة، وقد سبقه عبد الله بن عمرو الذى كتب فى عهده ﷺ. وإذا صح هذا الخبر وكان كتابه مرتبًا على الأبواب: (الصلاة والصيام والحج والزكاة والقضايا) كما ذكر السيد حسن الصدر، كان لأبى رافع شرف الأولوية فى التأليف لا فى التدوين، وصحة هذا لا تحملنا على أن ننفى ما ثبت تاريخياً من أخبار التدوين فى عهد الخليفة عمر ابن عبد العزيز.

ب ـ مادمنا فى موضوع الشيعة والتدوين، فلابد من أن نتناول بالبحث أصلاً من أصول الزيدية، يعود تدوينه إلى مطلع القرن الثانى، وهذا الأصل هو «مجموع

---

(١) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٧٩، ٢٨٠. وقد نقل عن الشيخ أبى العباس النجاشى ما ذكره عن أبى رافع. ثم قال السيد حسن الصدر: وأول من صنف فى الآثار مولانا أبو عبد الله سلمان الفارسى (ر)... وأول من صنف الحديث والآثار بعد المؤسسين أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله ﷺ وله كتاب الخطبة يشرح فيها الأمور بعد النبى ﷺ ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسى فى الفهرست. ثم يذكر كتابًا لعبيد الله بن أبى رافع فى قضايا أمير المؤمنين وكتاب تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة، ثم ذكر بعض أخبار كتب لأشخاص طعن فيهم أهل السنة كالحارث بن عبد الله الأعور الهمدانى، أو أخبار كتب لم تثبت عند أهل السنة. انظر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ص ٢٨٢ وما بعدها.

الإمام زيد» ونتناول هذا الكتاب فى ثلاث نقاط، وهى التعريف بصاحب المجموع، والتعريف براويه، ثم المجموع ذاته.

١ ـ الإمام زيد: هو زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم جميعًا. ولد الإمام زيد حوالى سنة (٨٠هـ)، ونشأ فى أسرة معروفة بالعلم والجهاد، فقد تلقى العلم على أبيه ثم أخذ عن أخيه محمد الباقر الذى شهد له العلماء بالمنزلة العلمية الرفيعة، كما سمع من كبار التابعين فى المدينة وكان يتنقل بين الحجاز والعراق، ونضج الإمام زيد حتى شهد أهل العلم بفضله وعلمه، سئل جعفر الصادق عن عمه زيد، فقال: كان والله أقرأنا لكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله، وأوصلنا للرحم، والله ما تُرِكَ فينا لدينا ولا لآخرة مثله. وقال الشعبى: ما ولدت النساء أفضل من زيد بن على ولا أفقه ولا أشجع ولا أزهد، وسئل الباقر عن أخيه زيد، فقال: إن زيدًا أعطى من العلم بسطة[١].

ولزيد مع هشام بن عبد الملك وولاته أخبار كثيرة تذكر إحراجهم له واضطراره إلى الخروج على الخليفة، ومن هذا ما ذكره ابن العماد الحنبلى أنه دخل يومًا على هشام بن عبد الملك، فقال له: (أنت الذى تنازعك نفسك فى الخلافة وأنت ابن أمة! فأجابه بقوله: إن الأمهات لا يقعدن بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحاق، صلى الله عليهما، فلم يمنعه ذلك من أن ابتعثه الله نبيًّا، وجعله للعرب أبًا، وأخرج من صلبه خير البشر محمدًا ﷺ! أفتقول لى كذا وأنا ابن فاطمة وابن على[٢]!؟) وقام ينشد شعرًا وخرج فى الكوفة وبايعه من أهلها خمسة عشر ألف رجل، ثم تفرقوا عنه ليلة خرج سوى ثلاثمائة رجل، ولما قتل أرسل برأسه إلى الشام ثم إلى المدينة، وكان ذلك سنة (١٢٢[٣]) هـ.

---

(١) انظر: مقدمة مسند زيد وترجمته ص ٢ وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب ص ١٥٧ جـ١، وانظر: الإمام زيد لأبى زهرة ص ٤٢- ٦٦.

(٣) انظر: شذرات الذهب ص ١٥٧ جـ٢، والإمام زيد ص ٤٢- ٦٦.

وللإمام زيد المسند المسمى المجموع الفقهى. وله المجموع الحديثى، وقد جمعهما[١] عمرو بن خالد الواسطى. وله أيضًا تفسير الغريب من القرآن، وتثبيت الإمامة ومنسك الحج[٢].

٢ـ أما راوى المجموع، فهو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى الهاشمى بالولاء الكوفى، روى مجموعى الإمام زيد الحديثى والفقهى، قال: صحبت الإمام زيدًا فما أخذت عنه الحديث إلا وقد سمعته مرة أو مرتين أو ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك، وما رأيت هاشمياً مثل زيد بن على، فلذلك اخترت صحبته على جميع الناس[٣]. وتوفى بعد العشر الخامسة من المائة الثانية من الهجرة.

وقد اختلف فى أبى خالد، فقبل الزيدية روايته، وفى هذا يقول القاسم ابن عبد العزيز: (وعمرو بن خالد الواسطى أبو خالد، حدث عنه الثقات، وهو كثير الملازمة لزيد بن على عليه السلام، وهو الذى أخذ عنه أكثر الزيدية مذهب زيد بن على عليهما السلام، ورجحوا روايته على رواية غيره[٤]).

وجرحه الإمامية[٥] وغيرهم. وقد فند شارح المجموع طعون الجارحين لعمرو، وبين أقوال العلماء فيه، وانتهى إلى أن كل ما وجه إليه لا يؤثر فى عدالته[٦]، وكذلك فند فضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة الطعون وناقشها ووازن آراء العلماء، وانتهى إلى أن أوجه قبول رواية أبى خالد أرجح من أوجه الطعن[٧].

٣ـ المجموع: واختلف فى المجموع ذاته: هل وضعه الإمام زيد ورتبه كما هو عليه الآن وأملاه على طلابه أم أن هذا عمل أبى خالد؟ فأبو خالد نفسه يجيب

---

(١) انظر: الإمام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٢.

(٢) انظر: مقدمة مسند زيد (المجموع) صفحة ٤، ٥.

(٣) انظر: المرجع السابق ص ٢٦ والروض النضير ٢٨ حـ١.

(٤) الروض النضير ص ٢٨ جـ١.

(٥) الإمام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٣.

(٦) انظر: الروض النضير ص ٢٥- ٤٧ جـ١ وشارح المجموع العلامة شرف الدين بن الحيمى اليمنى، وكان عرضه لذلك قيمًا تجدر مراجعته.

(٧) انظر: الإمام زيد لأبى زهرة ص ٢٣٥- ٢٥٨.

إبراهيم بن الزبرقان الذى سأله: كيف سمعت هذا الكتاب عن زيد بن على؟ فيقول: (سمعته منه فى كتاب معه قد وطأه وجمعه، فما بقى من أصحاب زيد ابن على ممن سمعه معى إلا قتل غيرى[1]) إلا أن الإمام محمد بن المطهر فى أول شرحه المنهاج على المجموع يقول: (وكان مذهبه - يعنى زيد بن على - عزيزاً، لقلة ضبطه فى الكتاب الجامع إلا ما عنى بجمعه أبو خالد، فإنه جمع مجموعين لطيفين، أحدهما فى الأخبار، والآخر فى الفقه[2]) ويمكن الجمع بين الخبرين بأن أبا خالد قد كتب عن الإمام زيد الحديث والفقه وسمع منه، فرتب ذلك فى مجموعين. ولا نرى هذا بعيداً قط، لأن أبا خالد صحب زيداً بالمدينة قبل قدومه الكوفة خمس سنين، كان يقيم عنده فى كل سنة أشهرا كلما حج[3]، وكان عصر الإمام زيد عصر طلائع التصنيف، ومع هذا لا يمكننا أن نقطع بأن المجموع كما هو عليه الآن جمعاً وترتيباً من تصنيف الإمام زيد، لأن الدارس لمتن المجموع يرى كثير من الحديث يرويه أبو خالد قائلاً (حدثنى زيد بن على)، وفى الفقه يقول: قال زيد بن على، مما يدل على أن أبا خالد تلقى هذا مشافهة عن الإمام زيد. وهذا لا يمنع أن يحمل الإمام بعض علمه فى كتاب سواء أملى على طلابه أم لم يمل، يرجح عندى أن أبا خالد كتب عن الإمام الحديث والفقه، ثم رتب ذلك فى مجموعين وكل هذا لا يؤثر فى صحة نسبة المجموع إلى زيد بن على.

وعلى هذا يكون المجموع من أهم الوثائق التاريخية التى تثبت ابتداء التصنيف والتأليف فى أوائل القرن الثانى الهجرى. بعد أن استنتجنا هذا من خلال عرضنا لمصنفات ومجاميع العلماء من غير أن نرى نموذجاً مادياً يمثل أولى تلك المصنفات. اللهم إلا موطأ الإمام مالك الذى انتهى من تأليفه قبل منتصف القرن الهجرى الثانى، فيكون المجموع قد صنف قبله بنحو ثلاثين سنة.

من الواضح أن المجموع المطبوع جمع بين الفقه والحديث، فهو يضم المجموعين الفقهى والحديثى ولكنهما ليسا منفصلين، فنرى أبا خالد يروى فى الباب الواحد

---

(١) الروض النضير ص ٢٨ جـ١.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٢.

(٣) انظر: الروض النضير ص ٢٨ جـ١.

أحاديث مرفوعة إلى النبى ﷺ، وآثارًا عن على رضى الله عنه، وفقه الإمام زيد رحمه الله.

وقد ضم المجموع (٢٢٨) حديثًا مرفوعًا إلى النبى ﷺ، ومن الأخبار العلوية (٣٢٠) خبرًا، وعن الحسين خبرين فقط[١].

وقد رتب المجموع ترتيبًا فقهيًا، ففيه كتاب الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتاب الجنائز، وكتاب الزكاة، وكتاب الصيام، وكتاب الحج، وكتاب البيوع... ورتب كل كتاب على أبواب مختلفة، ويفتتح كل باب بحديث الباب بسنده المرفوع إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام أو الموقوف على الإمام على رضى الله عنه. وسأعرض بعض النماذج لنقف على حقيقة المجموع.

أ- من باب ما ينبغى أن يجتنب فى الصلاة:

قال: (حدثنى زيد بن على عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال: أبصر رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته فى الصلاة فقال: «**أما هذا فلو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»، وقال زيد بن على عليه السلام: إذا دخلت فى الصلاة فلا تلتفت يمينًا ولا شمالاً، ولا تعبث بالحصى، ولا ترفع أصابعك ولا تنقض أناملك، ولا تمسح جبهتك حتى تفرغ من الصلاة[٢]).

ب - من كتاب البيوع، باب الكسب من اليد:

قال: (حدثنى زيد بن على عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، أى الكسب أفضل؟ فقال ﷺ: «**عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور، فإن الله يحب المؤمن المحترف، ومن كدّ على عياله كان كالمجاهد فى سبيل الله عز وجل**».

---

(١) انظر: مقدمة مسند زيد ص ٩.

(٢) مسند الإمام زيد ص ٣٦، ٣٧.

حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام، قال: من طلب الدنيا حلالاً تعطفًا على والد أو ولد أو زوجة، بعثه الله تعالى ووجهه على صورة القمر ليلة البدر[1].

٣ـ رأي في التدوين الرسمي:

لقد تبين لي أثناء البحث في موضوع تدوين السنة، وخاصة في دراسة رجال الحديث في عصر الصحابة والتابعين ـ أن أمير مصر عبد العزيز بن مروان ابن الحكم الأموي (ـ٨٥هـ). قد حاول جمع حديث رسول الله ﷺ، وقد روى هذا إمام الديار المصرية ومحدثها الليث بن سعد، فقال: (حدثني يزيد بن أبي حبيب أن عبد العزيز بن مروان كتب إلى كثير بن مرة الحضرمي ـ وكان قد أدرك بحمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله ﷺ ـ قال ليث: وكان يسمى الجند المقدم، قال: فكتب إليه أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ، من أحاديثهم إلا حديث أبي هريرة فإنه عندنا[2])، لم يطلب حديث أبي هريرة لأنه كان عنده وكان قد سمعه عبد العزيز بن مروان من أبي هريرة[3]. لقد طلب أمير مصر كتابة حديث رسول الله ﷺ من إمام حمص وعالمها الذي كان طلابًا للعلم حافظًا ثقة[4]. وقد كان هذا الطلب أثناء إمارته على مصر بين سنة (٦٥ـ ٨٥) هجرية، ويمكننا أن نجد هذا بحد أقرب إلى الحقيقة إذا عرفنا أن كثير بن مرة توفي بين سنة (٧٠ و٨٠[5]) للهجرة، فلو فرضنا أنه توفي سنة (٧٥هـ) فمعنى هذا أن طلب الأمير كان قبل هذه السنة، والراجح عندي أن طلب الأمير عبد العزيز، كان في السنين الأولى من إمارته، لما عرف عنه من حب للعلم وأهله، وتفان في خدمة الدين[6].

---

(١) مسند الإمام زيد ص ١٠٣.

(٢) طبقات ابن سعد ص ١٥٧ قسم ٢ جـ٧ وتهذيب التهذيب ص ٤٢٩ جـ ٨ وانظر: سير أعلام النبلاء مخطوط ص ١٤٥ قسم ٢ جـ ٤.

(٣) انظر: تهذيب التهذيب ص ٣٥٦ جـ ٦.

(٤) انظر: تذكرة الحفاظ ص ٤٩ جـ١.

(٥) انظر: تهذيب التهذيب ص ٤٢٩ جـ ٨.

(٦) انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ١٧١، ١٧٤ جـ١، وولاة مصر للكندي ص ٤٩.

إلا أن المصادر لم تخبرنا عن امتثال كثير بن مرة للأمير. فنقف أمام هذا الخبر التاريخى متسائلين: ترى هل كتب كثير للأمير ما طلب منه من حديث رسول الله ﷺ؟ وإذا كتب إليه فما مقدار ما كتبه؟ وعن أى الصحابة كتب إليه؟ ثم إلى من آلت تلك الصحف أو الدفاتر المدونة؟ كل هذه أسئلة تعرض أمامنا، وتحتاج إلى بحث وتنقيب، وربما يكشف لنا التاريخ عن خبايا تراثنا الإسلامى العظيم. نجيب عن هذه الأسئلة على ضوء ما لدينا من أخبار قليلة.

إن ما نعرفه من عناية هؤلاء بالحديث يرجح عندنا أن يستجيب كثير بن مرة لطلب الأمير، ولو ظن الأمير عبد العزيز امتناع عالم حمص عن إجابته ما كتب إليه، مما يرجح عندى أن كثيرًا تلقى رسالة الأمير وأجابه إلى طلبه، لما عرف عن كثير من نشاط علمى عظيم، ومن الصعب فى هذا المجال أن نقدر مقدار ما كتب كثير، لأن المراجع لم تنص على شىء من هذا[1]، فأرجو من الله أن أوفق فيما بعد للكشف عن ذلك وإيضاحه بما يكفل لنا الحكم العلمى الصحيح.

ونقول الآن بعد هذا الخبر: إذا ثبتت استجابة كثير بن مرة لطلب أمير مصر. فيعنى هذا أن بعض الحديث النبوى قد دون رسمياً فى منتصف العقد الهجرى الثامن قبل انقضاء القرن الأول. وعلى أية حال، فإن اهتمام أمير مصر بحديث رسول الله ﷺ وتدوينه يزيدنا ثقة بأن التدوين قد سار جنبًا إلى جنب مع الحفظ، ولم يتأخر قط إلى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، فيكون شرف المساهمة فى تدوين الحديث، قد كلل الوالد الأمير والابن الخليفة البار، ويكون لهما جميعًا شرف العمل لحفظ الحديث وتدوينه رسمياً.

وأنا بهذه النتيجة لا أريد أن أخالف ما اشتهر عند أئمة هذا العلم من أن تدوين الحديث النبوى كان على رأس المائة الأولى فى خلافة عمر بن عبد العزيز، بل

---

(١) لأن التاريخ الأموى دون فى عهد الدولة العباسية وقد اهتم المؤرخون بالحوادث الكبرى وبالخلفاء والخطوط العريضة من حياة الأمراء. وكانت كثير من مزايا الأمويين تطمس أو تصغر تمشيًا مع سياسة العباسيين الذين لا يسرهم التحدث بمفاخر من قبلهم. انظر: أضواء على التاريخ الإسلامى ص ٨٥. ونحن لا نشك بوجود مؤرخين منصفين نرجو أن نجد عندهم فيما بعد ما يروى غليلنا فى هذه النقطة.

أضع يدى على مفتاح بحث تاريخى له أهميته فى تاريخ تدوين الحديث، سواء أخالف هذا المشهور أم وافقه، وهذا المفتاح قد طوى فى بطون تراثنا الزاخر، ينتظر من يتفرغ ليكشف عنه، فنحن فى هذا لسنا بدعا، ولا نأتى بشىء جديد سوى أننا ننفض غبار الماضى عن جواهرنا المكنونة، ونحاول أن نسلكها فى عقد يصور لنا الحقيقة التاريخية.

٤ ـ المستشرقون ورأيهم فى تدوين الحديث:

لقد عرفنا أن المسلمين حفظوا حديث النبى ﷺ فى صدورهم وصحفهم، فساهمت الذاكرة والأفلام والصحف والدفاتر فى حفظ السنة المطهرة، وسار الحفظ فى الصدور وفى الصحف جنبًا إلى جنب فى سبيل هذه الغاية، ورأينا مراحل التدوين الفردى والرسمى، وثبت لنا وقوع التدوين فى عهد رسول الله ﷺ وفى عصر الصحابة والتابعين، بأدلة قاطعة لا يرقى إليها الشك، ولا يعتريها الظن. وعرفنا أن ضرورة حفظ الحديث لم تنتظر خلافة عمر بن عبد العزيز وإذنه، بل دعت إلى تدوينه قبله بكثير، وكان لعمر بن عبد العزيز شرف مساهمة الدولة فى تبنى هذا التدوين والإشراف عليه، وتحريك همم العلماء للجمع والتصنيف، الذى ظهرت بوادره فى النصف الأول من القرن الثانى، ونضجت ثماره فى المصنفات الكثيرة التى أخرجها أوائل المصنفين فى مختلف بلاد الدولة الإسلامية آنذاك.

بعد هذا لن نؤخذ بما وصل إليه المستشرقون وأعلنوه من أن السنة قد دونت فى عصر مبكر. ولن نقع فيما نصبه بعضهم من شراك خلف بحوثهم، وإن ظهرت بعض أبحاثهم فى ثوب علمى نقى، فقد كتب جولد تسيهر فصلاً خاصاً حول كتابة الحديث فى كتابه «دراسات إسلامية» أتى فيه بأدلة كثيرة على تدوين الحديث فى أول القرن الهجرى الثانى، وكان فى الفصل الأول من كتابه (قد سرد طائفة من الأخبار، تشير إلى بعض الصحف التى دونت فى عهد الرسول ﷺ، ولكنه حاطها بكثير من التشكك فى أمرها، والريبة فى صحتها، وقد رمى بهذا إلى غرضين، أحدهما: إضعاف الثقة باستظهار السنة وحفظها فى الصدور، لتعويل

الناس منذ القرن الهجرى الثانى على الكتابة، والآخر وصم السنة كلها بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين لها، الذين لم يجمعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم، ويعبر عن آرائهم ووجهات نظرهم فى الحياة. . .

وحاول المستشرق «سوفاجيه» فى كتابة «الحديث عند العرب» أن يفند المعتقد الخطأ عن وصول السنة بطريق المشافهة وحدها، وجمع أدلة كثيرة على تدوين الأحاديث والتعويل على هذا التدوين فى عصر مبكر يبدأ أيضًا فى مطلع القرن الهجرى الثانى، وليس فى حياة الرسول ﷺ، وغايته لا تختلف فى شىء عن غاية جولد تسيهر)[1].

ويقول الدكتور صبحى الصالح: (وأما «دوزى» فلعله يخدع برأيه المعتدل كثيرًا من علمائنا فضلاً عن أوساط المتعلمين فينا، فقد كان هذا المستشرق يعترف بصحة قسم كبير من السنة النبوية التى حفظت فى الصدور، ودونت، فى الكتب بدقة بالغة، وعناية لا نظير لها. «وما كان يعجب لكثير من الموضوعات والمكذوبات تتخلل كتب الحديث - فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التى لا يرقى إليها الشك، (ونصف صحيح البخارى على الأقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلوا فى النقد)، مع أنها[2] تشتمل على أمور كثيرة يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها»[3]. فلم يكن غرض هذا المستشرق خالصًا للعلم والبحث المجرد حين مال إلى الاعتراف بصحة ذلك النصيب الكبير من السنة، وإنما كان يفكر أولاً وآخرًا فيما اشتملت عليه هذه السنة الصحيحة من نظرات مستقلة فى الكون والحياة والإنسان، وهى نظرات لا يدرأ عنها استقلالها النقد والتجريح، لأنها لم تنبثق من العقل الغربى المعجز، ولم تصور حياة الغرب الطليقة من كل قيد[4])!.

---

(١) انظر: هذا البحث فى علوم الحديث ومصطلحه للدكتور صبحى الصالح ص ٢٣ - ٣٠ وما أشرنا إليه فى الصفحة ٢٤، ٢٥.

(٢) أى الروايات الصحيحة.

(٣) أشار الدكتور صبحى الصالح فى هامش الصفحة ٢٦ إلى أن عبارة دوزى فى الأصل أوقع من أن يوردها على حالها وأحال على الأصل بالفرنسية.

(٤) علوم الحديث ومصطلحة ص ٢٦.

وعثر المستشرق (شبرنجر) على كتاب «تقييد العلم» للخطيب البغدادى فوجد فيه شواهد وأخبارًا تدل على تدوين المسلمين للحديث فى عصر مبكر، فكتب مقالاً حول ما وجده.

واطلع (جولد تسيهر) على ما كتبه سلفه (شبرنجر) وأيد فكرة كتابة المسلمين للحديث فى عصر مبكر، إلا أنه (تأمل فى الأخبار التي عرضها سلفه «شبرنجر» نقلاً عن الخطيب البغدادى وغيره، فوجدها تارة تقول بأن الرسول ﷺ أجاز كتابة العلم، وطورًا تدعى بأنه نهى عنها، وتذكر مرة أن الصحابة حضوا عليها، ثم لا تلبث أن تروى كراهتهم لها، وتَعْرِضَ كَتْبَ بعض التابعين للعلم، ثم تذكر استنكاف بعضهم الآخر ـ رأى ذلك فظن بهذه الأخبار سوءًا، وأراد أن يرى خلالها يد الوضع والتزوير، فتصور حزبين متناضلين، اتخذا من هذه الأخبار سلاحًا، يذود كل منهما به عن رأيه، ويدفع خصمه، فقال: إن أهل الرأى ـ الذين اعتمدوا فى وضع فروع الشريعة على عقلهم، وأهملوا شأن حديث رسول الله ﷺ ـ كان من حججهم أن الحديث لم يكتب دهرًا طويلاً، فغابت معالمه، وتشتت أمره، وأيدوا رأيهم بأخبار اختلقوها، تثبت أنه لم يكتب، ولم يقف خصومهم «أهل الحديث» واجمين، بل فعلوا فعلتهم واختلقوا الأخبار تأييدًا لقولهم، فنسبوا إلى الرسول أحاديث فى إباحة الكتابة[1]).

هكذا رأى جولد تسيهر أهل الرأى يدعون عدم كتابة الحديث، فيضعون من الأخبار ما يثبت دعواهم، وأهل الحديث يرون جواز تقييد العلم، فيضعون ما يثبت دعواهم، ليحتجوا بصحة ما لديهم من أحاديث فى خلافاتهم الفقهية، أراد جولد تسيهر أن يصور علماء الأمة ومفكريها، حزبين متعصبين لآرائهم، يستجيزون الكذب فى سبيل ذلك!! فساء ما تصوره وبئس ما انتهى إليه.

وقد قيض الله لكتاب «تقييد العلم» أن ينشر فى دمشق، ويحقق تحقيقًا علمياً دقيقًا، على يدى أستاذنا الدكتور يوسف العش، الذى درس أخباره دراسة عميقة،

(١) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥١ السنة السابعة الصفحة ٢٢، ٢٣ـ من مقالة أستاذنا الدكتور يوسف العش «نشأة تدوين العلم فى الإسلام».

ثم قدم للكتاب المذكور بتصدير علمى قيم، كشف فيه عن خطإ جولد تسيهر فى رأيه (حين قال: إن من ادعى عدم جواز الكتابة هم أهل الرأى، وأن مخالفيهم هم من أهل الحديث - «قال الدكتور العش» -: فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين، لأن من أهل الرأى من امتنع عن الكتابة كعيسى بن يونس (ـ١٨٧هـ) وحماد ابن زيد (ـ١٧٩هـ) وعبد الله إدريس (ـ١٩٢هـ)، وسفيان الثورى (ـ١٦١هـ)، وبينهم من أقرها كحماد بن سلمة (ـ١٦٧هـ)، والليث بن سعد (ـ١٧٥هـ)، وزائدة بن قدامة (ـ١٦١هـ) ويحيى بن اليمان (ـ١٨٩هـ)، وغيرهم. ومن المحدثين من كره الكتابة كابن علية (ـ٢٠٠هـ) وهشيم بن بشير (ـ١٨٣هـ)، وعاصم بن ضمرة (ـ١٧٤هـ) وغيرهم، ومنهم من أجازها كبقية الكلاعى (ـ١٩٧هـ) وعكرمة بن عمار (ـ١٥٩هـ)، ومالك بن أنس (ـ١٧٩هـ) وغيرهم[1]).

بهذه البراهين القوية نقض الدكتور العش رأى جولد تسيهر وقوض كل ما بناه على رأيه من صور وهمية، وبين بعد البحث والتأمل (أن ليس من أوصاف مشتركة توحد بين أصحاب إحدى الطائفتين، فليس الفريقان حزبين اتفق أفرادهما فى الرأى، واستعدوا لخوض المعركة متضامنين، يناصر بعضهم بعضًا، إنما تمسكوا برأيهم عن عقيدة نفسية، أو عن ميول شخصية، أو عن ذوق خاص، أو عن عادة مستحكمة، وعندنا أن الطائفتين المتخاصمتين متفقتان بالغاية، ولو أنهما تشاحنتا فى القول، فكلتاهما تبغى الدفاع عن العلم والتقدم به[2]).

بعد تلك الأخبار عن التدوين، وحرص الأمة على سلامة الحديث النبوى، لا يمكننا أن نسلم بما ذهب إليه المستشرقون، وخاصة بعد أن ظهر أمرهم على ضوء ما بيناه، فالسنة حفظت منذ عهد الرسول ﷺ فى الصدور، وقيد بعضها فى الصحف، وكانت محل اعتناء المسلمين فى مختلف عصورهم، فتناقلوها جيلاً عن جيل حفظًا ودراسة بالمشافهة والكتابة، واجتهدوا وسعهم لحفظ الحديث بأسانيده

(١) تقييد العلم ص ٢١، ٢٢ وانظر: مقالة الدكتور العش فى مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥٣ السنة السابعة الصفحة: ٩، ١٠.

(٢) مجلة الثقافة المصرية العدد ٣٥٣ السنة السابعة الصفحة ١٠.

فى مصنفات ومسانيد تكفل لأهل العلم معرفة القوى من الضعيف، خشية تسرب الكذب إلى حديثه ﷺ، ثم اجتهد كبار العلماء فى جمع الحديث الصحيح على أسلم قواعد التثبت العلمى، فرحلوا فى طلب ذلك، وسمعوا بأنفسهم، وتثبتوا وسعهم، وكتبوا بأيديهم، فظهرت الكتب المجردة من الضعيف وأجمعت الأمة الإسلامية ـ التى فهمت الإسلام واتخذته سبيلها فى مختلف وجوه حياتها ـ على صحة (صحيح البخارى) و(صحيح مسلم)، فإذا اعترف المستشرقون ببعض الحقيقة العلمية، وأقروا جانبًا مما أثبتته المصادر الإسلامية، فلا يجوز لنا على أى حال أن نقبل ما ذهبوا إليه من طعن فى صحاح السنة، باسم طبيعة تطور الرواية أو غير ذلك، كما لا يجوز لنا أيضًا أن نقبل منهم إضعاف ثقتنا باستظهار السنة وحفظها مادام قد ثبت تقييد بعض الحديث منذ عهده ﷺ، فلا تعارض بين حفظ الحديث وكتابته، ولا يقتضى وجود أحدهما انعدام الآخر أو ضعفه.

نتائج هذا الفصل:

١ـ دونت أحاديث فى عهد الرسول ﷺ وفى عهد الصحابة والتابعين، ووصلنا بعضها فى المسانيد والصحاح وبعضها مستقلاً، وأشهر تلك الصحف التى دونت فى عهده ﷺ الذى أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بكتابته بين المسلمين ويهود المدينة، والصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو، وبعض صحيفة جابر، ومن أقدم ما وصلنا من عهد الصحابة صحيفة همام بن منبه عن أبى هريرة التي دونت قطعًا فى العقد السادس من القرن الأول الهجرى.

٢ـ تجلى لنا من البحث كثرة الكتب والمصنفات فى أول القرن الهجرى الثانى.

٣ـ إذا صحت نسبة (مجموع زيد) إلى الإمام زيد ـ وهو الراجح ـ يكون لدينا دليل مادى قوى على ما صنف فى أوائل القرن الهجرى الثانى.

٤ـ إن محاولة أمير مصر جمع الحديث فى العقد الثامن من القرن الأول الهجرى دليل على اهتمام ولاة المسلمين بالحديث، وحرصهم على حفظه، ومحاولة رسمية من أولى الأمر لجمع السنة قبل الزمن المشهور بربع قرن.

٥- لم تسلم أبحاث المستشرقين من الخطأ المقصود أو غير المقصود، ولم يصب (جولد تسيهر) فى تصوره واستنباطه من الأخبار الواردة فى كراهة الكتابة وإباحتها، حين ظن قيام حزبين متخاصمين، أهل رأى، يضعون ما ينفى التدوين ليتمكنوا من الطعن فى بعض الأحاديث ورفضها حسب ميولهم وأهوائهم، وأهل حديث، وضعوا ما يروق لهم من الأخبار التى تثبت التدوين ليتمكنوا من الاحتجاج ببعض الأحاديث التى تخدم غاياتهم وأهواءهم. فعلماء المسلمين وفقهاؤهم أرفع بكثير مما تصوره (جولد تسيهر)، وقد نهجوا جميعًا المنهج العلمى الدقيق فى سبيل الحفاظ على الشريعة الإسلامية.

وبعد أن اطلعنا على تاريخ السنة، منذ عهد الرسول ﷺ حتى منتصف القرن الهجرى الثانى تقريبًا، وعرفنا كيف حفظت وكيف نقلت ورويت جيلاً عن جيل، حتى وصلتنا سالمة خالصة من كل شائبة - أرى من واجبى أن أعرف بمشاهير رواة الحديث من الصحابة والتابعين، لنطلع على مكانتهم العلمية، ونعلم قيمة رجال الحديث الذين حافظوا على السنة، وصانوها عبر الزمان، ونقلوها إلينا بكل أمانة، فهم سندنا، وسبيلنا إلى الرسول ﷺ وإلى سنته الطاهرة، وهذا ما سأبحثه فى الباب التالى بعون الله.

***